وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري

مديرية التأليف والترجمة

سلسلة الثقافة الشعبية

الشابي

النبي المجهول

مصطفى الحبيب بحري

١

وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري
مديرية التأليف والترجمة

الشابي

النبي المجهول

تاليف

مصطفى الحبيب بحري

ملتزم الطبع والنشر
دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

سلسلة الثقافة الشعبية
١

ابو القاسم الشابي

موجز حياته

ولد ابو القاسم الشابي في مارس (آذار) عام١٩٠٩ فيالشابية، احدى ضواحي مدينة توزر ، وصافح بصره منذ أهلّ على الدنيا ، مناظر الطبيعة الساحرة المرعة الخضراء .

وكان والده الشيخ محمد بن بلقاسم سليل اسرة كريمة النجار ، معروفة بالعلم والأدب . تخرج من الازهر ، بعد ان أقام سبع سنوات بمصر . ثم درس بجامع الزيتونة سنتين ، وظفر بشهادة التطويع وسمي قاضياً ، وعمر ابنه البكر ابي القاسم يشارف السنة .

وتنعم ابو القاسم برعاية ابيه وعطفه ، طفلاً وشاباً . ليقول عنه ، فيما بعد ، في كتابه (الخيال الشعري عند العرب) :

« إنه أفهمني معاني الرحمة والحنان ، وعلمني ان الحق خير ما في هذا العالم ، واقدس ما في هذا الوجود » .

وتنقل أبوه ، بحكم عمله كقاض ، في مختلف البلدان من تونس خلال عشرين عاماً . وضرب الشابي مع ابيه واسرته في كل مراد من ارض وطنه . واجال بصره الطلعة ، في الصحراء الوسيعة ، في البحر اللجي ، في الحدائق الغلب ، في كل منفسح أفق ، لتدخر نفسه المتوفزة المرهفة ، صوراً وتهاويل والواناً من طبيعة بلاده ، وتنفضها ، ذات يوم ، شعراً طلياً عذباً ، « ولينقله هذا المصير ــ كما يقول اخوه محمد الأمين الشابي ــ من حدود البيئة الضيقة ، ويكسبه (تونسية) إنسانية الآفاق » (١) .

وادخله ابوه ، وهو بعد في الخامسة من عمره ، كتاباً من من تلك الكتاتيب التي كانت تقوم بمهمة تحفيظ القرآن .

---

(١) مقدمة ديوان (أغاني الحياة) للشابي ص ٩

فما اطلّ على التاسعة من عمره ، حتى كان قد اتم حفظ القرآن ، وكان ابوه يلقّنه ، الى جانب ذلك ، دروساً في الأدب والدين ، وينمي في نفسه الولعَ بالشعر ويغريه بحفظه ونظمه ، حتى قرزم ابو القاسم الشعرَ وهو بعد ، يافع صغير .

وفي عام ١٩٢١ ارسله ابوه الى تونس ، ليلتحق بجامع الزيتونة ، وعكف الشابي ، ثمة ، على الدرس والمطالعة والنظر في كتب الأدب العربي القديم ، وقرا ادب المهجر وادب المشرق المعاصر ، ولم يكن يعرف لغة اجنبية ولكنه المّ بكل ما نقل الى اللغة العربية من ادب الغرب ، ليرفدَ ثقافته العربية الأصيلة بالوان جديدة خصبة .

ونوّرت عبقرية الشابي الشعرية ، فترادفت قصائده ، حلوةً شجيّة رائعة ، وخصّ اكثرها بمجلة النهضة ، وظهر في عام ١٩٢٧ قسم كبير من شعره في الجزء الاول من كتاب (الأدب التونسي في القرن الرابع) الذي الّفه الاستاذ زين العابدين السنوسي (١) .

وبدا نجم شهرته يتوامض ، وانتبهت الاوساط الأدبية في تونس الى ان بين ظهرانيها ، شاعراً ملهماً يَعِدُ نبوغه المبكر بمستقبل مجيد . والقى الشابي ، بنادي قدماء الصادقية محاضرة مسهبة عن (الخيال الشعري عند العرب) ، وقد اصدرها ، في السنة التالية ، بكتاب مستقل ، وهي دراسة ناضجة وافية ، فيها دعوة صريحة الى التجديد ، وتقييم جريء للشعر العربي .

وقد نعى عليه اصحاب المذهب القديم ، دعوته هذه الصريحة الجريئة ، فهاجموه ونالوا من كتابه ، ولكنه ثبت لنقدهم ووجد في ابيه خير مشجع ونصير .

ولم يقتصر ابو القاسم على النشاط الادبي ، بل ساهم في الحركات السياسية التي كانت تقاوم الاستعمار الفرنسي وتطالب بالاستقلال ، واشترك في حركات الاصلاح الاجتماعي ، فناصر صديقه الشاعر الطاهر الحداد في دعوته الى تحرير المراة ، ولقي من ذلك نقداً عنيفاً قاسياً واتهم وصاحبه بالكفر والالحاد والمروق

---

(١) اشار الى ذلك الاستاذ السنوسي في كتابه الذي افرده عن حياة الشابي وشعره ، ص ١٣

من الدين .

وفي عام ١٩٢٧ تخرج الشابي من جامع الزيتونة وحصل على شهادة (التطويع) والتحق في السنة نفسها بمدرسة الحقوق التونسية ، ليظفر بشهادتها عام ١٩٣٠ .

وفي عام ١٩٢٨ تزوج ابو القاسم ، تلبية لرغبة والده ، وكان الشابي قد رزىء ، في فجر شبابه ، بموت حبيبة وفية ، اخترمتها المنية وهي في عفرة صباها(١) وبكاها احر بكاء ، ولكنه وجد في الحياة الزوجية هناءة غامرة(٢) خففت من آلام قلبه المضنى الجريح ، وقد رزق طفلين من زواجه السعيد .

غير ان القدر لم يدعه يسيغ افاويق الحياة الهنيئة الرغيدة فتوفي والده الحبيب عام ١٩٢٩ ، تاركاً له اعباء الاشراف على عائلته الكبيرة ، وهدّته هذه المصيبة ، وفاضت نفسه اسى وحزناً على ابيه خير معين ومشجع ونصير له في الحياة :

يا موت قد مزّقت صدري وقصمت بالارزاء ظهري
وفجعتني فيمن احب ومن إليه ابثُ سري
وأعدُه غابي ومحرابي واغنيتي وفجري

وفي هذه السنة اصيب ابو القاسم بداء تضخم القلب الذي قاد خطاه ، سريعاً ، الى القبر .

وقد ائتلفت قسوة القدر وقسوة البشر ، لتؤثرا في حساسيته ونفسه المرهفة ، وتطبعا شعره بطابع الحزن الدفين . وتدعاه يشعر بانه غريب عن مجتمعه ، فيكتب في مذكراته بتاريخ ٧/١/١٩٣٠ :

« اشعر الآن بانني غريب في هذا الوجود ، وانني ازداد ، كل يوم ، غربة بين ابناء الحياة وشعوراً بمعاني هاته الغربة الاليمة ، غربة من يطوف مجاهل الارض ويجوب اقاصي المجهول ، ثم يأتي ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحداً منهم يفهم من لغة نفسه شيئاً » (٣) .

---

(١) ابو القاسم الشابي ، للسنوسي ص ٢٣
(٢) ابو القاسم الشابي ، للسنوسي ص ٢٩
(٣) كفاح الشابي لابي القاسم كرو ص ٥٦

يا صميم الحياة كم أنا ، في الدنيا ، غريب أشقى بغربة نفسي .
بين قــوم لا يفهمــون أناشــيد فــؤادي ولا معــاني بؤسي !

ولم يكن ابو القاسم لينقطع عن الانتـاج الشعري ، على ما في الجهد الفكري ، من اثر ضار في قلبه الضعيف .

وجعل نجمه يزداد تألقاً ووميضاً وجدة ، في سمــاء الشعر العربي المعاصر ، وأخذت المجلات المصرية ، وبخاصة مجلة (ابولو) تزهى بنشر قصائد الشاعر التونسي الشاب ، ليلهج بها كثيرون من المعجبين في كل قطر عربي ، واوكل اليه الشاعر الدكتور احمد زكي ابو شادي تصدير ديوانه (الينبوع) لاعجابه بالشاعر الشـاب وتقديره العظيم له .

بيد أن الداء ظل يلح على قلب ابي القاسم « فلم يكن يغادر توزر إلا في الصيف ، وكان يقصد المصطافات الجبلية كعين دراهم بالشمال التونسي ، سنة ١٩٣٢ والمشروحة ببلاد الجزائر سنة ١٩٣٣ ، وشرع أثناء مصيفه سنة ١٩٣٤ ، في جمع ديوانه (اغاني الحياة) ، بنية طبعه ، فانتسخه بنفسه ، بحامة الجريد ، مستعيناً ببعض أدبائها ، ولكن المنية باغتته وحالت دون ما نوى ، فقد انتابه المرض، وقصد تونس في ١٩٣٤/٨/٢٦ وبها توفي ، في المستشفى الايطالي ، سحراً ، في ١٩٣٤/١٠/٩ ، ثم نقل جثمانه الى بلده توزر ، حيث قبره »(١) .

* * *

هكذا مات الشابي رحمه الله ، في ريّق الصبا ، ولكن في بردتيه كانت تتلخص آمال شعب واحلامه وآلامه ونضاله ونزوعــه الى الحرية والمجد ، وما نحسب أن شاعراً قد اتسق له أن ينهض ، في فترة وجيزة من حياته ، برسالة شعرية انسانية سامية ، مماثلة لرسالة الشابي النبي المجهول ، التي تجاوزت حدودها الضيقـة واشرقت فوق كل أفق عربي .

(١) محمد الامين الشابي ، مقدمة ديوان (أغاني الحياة) ص ١٢

الشعب في حياته وشعره

الحركة الادبية في تونس

كان هم الاستعمار الفرنسي منذ أن طوق بيديه الحديديتين مصير الحياة في المغرب العربي عزل هذا الجزء من الوطن العربي عن بقية الاجزاء الاخرى باقامة ستار فولاذي بينه وبينها تمهيداً لقتل الروح القومية في بنيه ولإدماجه في الوحدة الفرنسية ..

وكان لا بد له وهو يعمل من أجل هذا الغرض أن يحاول القضاء على أكبر مقوم من مقومات الامة ، وهو اللغــة ، وأن يسعى لخنق الصرخات الانعتاقية التي تأبى إلا أن تتصاعد بين حين وآخر من قلوب الاحرار والمفكرين والأدباء ..

ولا أريد في هذا المقام أن أصف بربريــة دعاة (الحريــة والعدل والمساواة) ، ولا أن أفخر وأنوه بالبطولات العربية في المغرب ، وانما أريد أن الاحظ على معلومات العرب في المشرق العربي ، وأقول إن هذه المعلومات كانت ضئيلة سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الادبية .. حتى الجغرافية .. الى أن قامت الثورة في المغرب واتّقد اوارها واشتدت مقاومة الاحرار هناك للاستعمار الغاشم .. عند ذلك اهتمت الاوساط العربية بجناحها الأيسر وعرفت عنه الحالة السياسيــة وشيئاً من الحالة الاجتماعية ، ولكن الحركة الادبية ظلت مجهولة مطموسة ..

فالمشتغلون بالأدب في المشرق العربي والمتشوفون الى النهل من منابعه الرقراقة الصافية لا يكادون يعرفون شيئاً عن الأدب ونزعاته واتجاهاته في المغرب العربي بعامة وفي تونس بخاصة..

والمتصفح لكتب تاريخ الأدب العربي الحديث يجدها خالية من كل ما يتعلق بالأدب العربي في المغرب حتى ليحسب القارىء أن الشعر العربي لم يتعد مصر والشام والعراق .. لولا شعر الشابي الذي فرضته عبقرية صاحبه على النقاد ومؤرخي الأدب..

ولي هنا كلمة أريد أن أقولها وهي أن الأدب العربي كل متكامل . وانه يعبر عن مشاعر شعب واحد بلغة واحدة عن واقع واحد وان دراسته دراسة اقليمية إن تكن ذات أهمية من الناحية الموضوعية فهي بتراء اذا اقتصر عليها ولم يربط بينها وبين أخواتها من الدراسات .

فالنقصان اذن قد تسرب الى كتب تاريخ الأدب العربي لأنها تناست مجموعة ضخمة من الآثار الأدبية في قطر معين .

وليس هذا مما يلام عليه أدباء الشعب العربي في المشرق بقدر ما يلام عليه أدباء العرب المغربيون أنفسهم .

فهم الذين قصروا في أداء رسالتهم نحو أدبهم العربي وتجاه امتهم العربية وهم الذين لم يحاولوا أن يكتبوا أو ينشروا

ما اختلجت به نفوس عانقت النور وتقلبت على أشواك الحياة ورددت اصداءه الجماهير الشعبية ، مطالبة بحياة حرةترفرف عليها رايات الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية ..

لقد ساهم الأدباء بتونس في كل الميادين الشعبية والوطنية فكانت نفثاتهم آهات تجلو ما يقاسيه الشعب من ألم وفقر وحرمان وكانت صرخاتهم صواعق داويات تنقضُّ على الغاصب الدخيل ،وتطالبه بحق استقلال تونس العربية المكافحة في سبيل العزة والمجد والنور ..

ولكن هاته الآهات وتلك الصرخات لم تتخط بعض زوايا الصحف المحلية ولم تجد من الشعب ولا من الأدباء الا تجاوباً وقتياً يطوى ـ بطي الصحيفة ـ في زوايا مظلمة من النسيان والاهمال .

لقد انجبت تونس أقراناً للرصافي وحافظ وشوقي .

انجبت سعيداً أبا بكر وخزنهدار وبوشربية ..

ولكن اولئك خلدهم التاريخ فخلدوا في سماء الأدب وهؤلاء كاد ذكرهم يموت كما ماتوا ، ولولا بقية سجلوها لنا في كتيبات لما عرفنا لهم انتاجاًولاندثر سجل تاريخي سطروه في أدبهم كتعبير عن آلام الشعب وآماله وكصورة وحشية لما يقوم به المستعمرون في أرضهم العربية .

تُرى ماهو العامل في هذا ؟

عندي أنه راجع الى سببين رئيسيين :

أولاً ـ أن الشعب في تونس يقبل بكثير من الحماس والتشجيع على كل الانتاج الوارد من المشرق العربي ، أو المغرب، بينما لا يولي ما يصدر في تونس من آثار حتى ولو فاقت ما هو وارد من المشرق أو من المغرب ـ أي اهتمام .

وليس ادل على هذا من قول الاستاذ الحليوي عند كلامه على (الخيال الشعري عند العرب) لأبي القاسم الشابي :« ولو أن هذا الكتاب صدر بمصر مثلاً لكان له دوي وصدى عظيم ، ولكان له ذكر في كل بلاد تقرأ فيها العربية ولأقبل عليه أبناء تونس وأدباؤها كما هو شأنهم في الاقبال على ما تقذفه مصر من در ثمين وغثاء تافه ، ولكنه صدر في تونس وألفه أديب تونسي وقد تعودنا أن نزدري كل عمل يخرجه أدباؤنا كما تعودنا أن نحسب كل ما يأتي به مواطنونا شيئاً حقيراً لاقيمة له ولا شأن » (١) .

ثانياً ـ خلو تونس من دور للنشر وللتوزيع .. فالشاعر أو الكاتب لا يجد من ينشر له انتاجاً واذا ما طبعه هو فانهلا يستطيع

(١) مع الشابي ص ٢٦ ، ٢٧

أن يوزعه الا في النطاق المحلي الضيق ونتيجة لهذا السبب وللسبب الذي ذكرته سابقاً ظلّ ادباء تونس مغمورين وظلّ بعضهم مجهولاً حتى من التونسيين أنفسهم .

ولا يفوتني قبل أن أختتم هذه الكلمة أن أذكر حقيقة وهي أنه منذ عامين تقريباً بزغت حركة ادبية في تونس تبشر بنتائج حسنة . ولكن الى الآن لم يجرؤ أحد على دراسة الأدب العربي في تونس دراسة موضوعية . وهذه الحركة الادبية الجديدة تتمثل في سلسلة (كتاب البعث) وفي مجلتي « الفكر » و « الندوة » [1] .

وعسى أن تكون هذه النهضة الأدبية حركة بعث للأدب في تونس ، ليتكامل الأدب العربي ويسير بالامة العربية نحو الحرية والوحدة والعدالة .

مكانة أبى القاسم بين شعراء تونس

اذا كان الشعراء في تونس قد انكمشوا حول أنفسهم وقبعوا في أبراجهم الفخارية فان أبا القاسم الشابي لم ييأس ولم ينكمش بل انطلق ، وأطلق صوته الغريد في سماء المشرق العربي فكان

---

(١) مما يؤسف له أن مجلة الندوة قد توقفت عن الصدور بعد كتابة هذه الدراسة سنة ١٩٥٧

بذلك أول من تخطى الحدود الزائفة المصطنعة [1] وكان أن أعجب به الادباء في المشرق ونشرت له مجلة (أبولو) بعض قصائده التي عرفت به الاوساط الأدبية وكانت بينه وبين أحمد زكي أبي شادي مراسلات ومناقشات خاصة تعتبر من عيون الأدب العربي كما يقول أبو شادي ولكنها « ضاعت تحت وطأة العهد البائد في مصر » [2] .

وكان من أثر إعجاب أبي شادي به أن عهد اليه تصدير ديوانه (الينبوع) [3] وبعد أن خطا الشابي خطوته الاولى المتمثلة في تخطي الحدود ، حاول أن يحطم العقبة الثانية التي تقف ضد نشر رسالته الانسانية « وشرع أثناء صيف ١٩٣٤

---

(١) في كتاب « الحركة الأدبية والفكرية بتونس » ان الشيخ محمد السنوسي (١٢٦٦ ـ ١٣١٨) قال قصيدته (الفريدة في المخترعات الجديدة) ونشرتها الصحف في تونس ومصر وسورية ص ٣٩ ـ ٤٠ ولكن لا قيمة لهذه القصيدة امام مانشر للشابي وهذه القصيدة في كتاب (عنوان الاديب) ج ٢ ص ١٤٧ ومطلعها : ارايت كيف تقارب البلدان .

(٢) الشابي كرو ص ٢٢ .

(٣) مقدمة الديوان ص ١١

في جمع ديوانه (أغاني الحياة) بنية طبعه بمصر فاستنسخه بنفسه (بحامة الجريد) مستعيناً ببعض أدبائها ولكن باغتته المنية وحالت دون ما نوى »[1] .

ولو أن أبا القاسم اكتفى بالنشر في تونس ولم يتحرر من هذه القيود الخانقة ولم يعبر الاسوار التي وقفت سداً في طريق غيره من الشعراء لمات ذكره كما مات ذكرهم ولاندثر انتاجه الخالد كما اندثر كثير من انتاج غيره من الشعراء والأدباء .

ان الشابي الذي يملأ ذكره الآن سماء الوطن العربي قد كان في يوم ما — وقبل أن يعترف له أدباء المشرق العربي بالنبوغ — أحد أولئك الذين تنكر لهم الشعب من المصلحين المناضلين وحاربهم بكل قوة وقسوة وبدون هوادة .

والدليل على هذا ما رواه لنا الاستاذ محمد البهلي النيال من أنه قرأ قصيدة لأبي القاسم — وهو لم يعرفه بعد — في احدى الصحف واعجب بها وعندما سأل صاحب الصحيفة عنه أجابه : « أنه شاب زيتوني أقلقني بمقطوعاته المكدسة بمكتبي يرجو نشرها ، وقد رأيت أن آخذ بخاطره فانشر له هذه القطعة »[2] .

---

(١) مقدمة الديوان ص ١٢ .

(٢) مجلة الندوة السنة الاولى ، العدد ١ ، الصفحة ٣

وكتب الاستاذ النيال كلمة عن تلك القصيدة يقرظها وينقدها وفي اليوم الذي نشرت فيه تلك الكلمة جاءه الشابي يشكره على عطفه عليه وعلى أدبه « بعد أن يئس واستولى عليه القنوط لما كان يلاقيه من عنت وكبت وكأنما الدنيا تفتحت له »[1] .

وهذا الاستاذ زين العابدين السنوسي يقول عند كلامه على رسالة الشابي « على أنه لم يتقيد في رسالته بالمحيط التونسي فلقد فزع الى مصر ينشر من خلال صحفها ومجلاتها قصائده وآدابه ، فهز من الهمم في تونس بعد أن رأى الناس مبلغ البشر والحفاوة التي تقبّله بها الاخوان هناك في دنيا المجد العربي لجيلنا الحاضر وهكذا غزا خصومه وانتصر عليهم بمجرد مناورة بسيطة أثارت الغيرة فاتجهت اليه أنظار مواطنيه من جديد ودوت رسالته من جديد باعظم مما كانت عليه »[2] .

ويقول الاستاذ الحليوي « ظهر الشابي في تونس فلم يفهمه الا افراد قلائل لأن تونس قبل عشرين عاماً لم تكن ناضجة لفهم الشابي ، ثم ظهر في الشرق فاذا الشرق يشرئب لهذا الشاعر الجديد ويتقبل ظاهرة جديدة في الأدب العربي الحديث ، واذا

---

(١) المصدر السابق .
(٢) أبو قاسم الشابي ـ سنوسي ص ٥٢ .

به يضعه في طليعة المدرسة الحديثة في الشعر ، أضراب ابراهيم ناجي وايليـا أبي ماضي وعلي محمود طـه ويوسف غصوب وأمثالهم » [1] .

من كل ما تقدم تظهر لنا بطولة أبي القاسم وعزمه واصراره على الوصول الى ما تصبو اليه نفسه ، ولعله لم يكن يستطيع أن يصل الى ما وصل اليه ولا أن ينال هذه الشهرة الواسعة وهذا التقدير العظيم ، لو لم ينشر شعره في المشرق ويعترف له الادباء هناك بالعبقرية والنبوغ . والمتصفح لرسائل الشابي والمطلع على تاريخ حياته يستطيع أن يدرك مدى ما قاساه من اضطهادالشعب في تونس له حتى أنه رماه بالكفر والزندقـة ، ومدى تصامم الأدباء عن شعره وعن دعوته الى الاصلاح والتحرروتطلعه للحياة والمجد . وسنرى أمثلة كثيرة من شعره تدلنا على ما عاناه من شعبه الذي لم يفهمه ولم يقدر رسالته وذلك في فصل قادم .

* * *

(١) مع الشابي ص ١٠٣ .

أبو القاسم الشّابي

أو

النّبي المجهول

أطلق عليه أبوه [1] اسم أبي القاسم وقرن الناس اسمه بلقب عائلته ونادوه بأبي القاسم الشابي [2] أما الشابي فقد أطلق على نفسه اسم (النبي المجهول) وكتب قصيدة بهذا العنوان تعد من أروع قصائده صور فيها ما قاساه هذا النبي من شعبه وما بلا من ظلم وعنت وارهاق في سبيل اداء رسالته لشعبه وللانسانية وللأدب العربي .

وسواء أكان شاعرنا صادقاً في تسميه بهذا الاسم أم لم يكن فان علينا أن نتتبع خطواته وحالة المجتمع الذي عاش فيه ، وما تقلب فيه من نعيم وبؤس ، من حب وكراهية ، من أمل ويأس ، من اقبال على الحياة ونفور منها ، حتى نرى مدى صدقه في تسمية نفسه بهذه التسمية وفي أداء رسالته كشاعر وكنبي وكانسان .

ولكن قبل أن أستطرد في الكلام على مدى صدق الشاعر في تسمية نفسه بهذه التسمية أرى من الضروري مناقشة بعض

---

(١) هو الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي من خريجي الازهر ومن الحاصلين على شهادة التطويع الزيتونية كان قاضياً وتوفي سنة ١٩٢٩ .

(٢) نسبة الى (الشابية) وهي احدى قرى الجنوب التونسي التابعة لمدينة (توزر) .

الآراء التي ذكرها بعض من كتب عن الشابي وعن شعره ثم أرسم الخطوط التي وضعها أبو القاسم كمعالم لرسالته حتى نستطيع أن نحكم على هذه الرسالة ، وحتى نتمكن من اعطاء صاحبها حقه دون محاباة أو تحامل .

ونحن نستطيع – اذا تتبعنا الآراء التي قيلت في رسالة الشابي – ان نحصر الذين كتبوا عنه وعن شعره في ثلاثة أقسام.

القسم الاول

يقول أصحاب القسم الاول إن الشابي قد ادى رسالته كاملة نحو شعبه ونحو وطنه ، ومن اماتته وصدقه في أداء هذه الرسالة أنه كان يثور على الاستعمار مفتخراً بالشعب عندما ينتفض الشعب ويثور في وجه الغاصبين . وينقم ، ويصب جام غضبه وسخطه عليه اذا هو استكان وأخمد روح الثورة في نفسه [1].

القسم الثاني

ويمثل القسم الثاني عمر فروخ ، فهو يقول « الشابي شاعر ناقم يزعم أنه يريد أن يؤدي رسالة ولكنه في الحقيقة يحمل معولاً لهدم كل شيء : الحياة والناس والبلاد والوطن والامة،

---

(١) يمثل هذا الاتجاه الاستاذ أبو القاسم كرو في كتابيه (الشابي) و (كفاح الشابي) .

واذا كنا نرى في بعض قصائده أملاً أو روحاً وطنية أو دعوة الى الاصلاح والنهوض فهذه كلها لا تبدل شيئاً من موقفنا . إن المصلح الحقيقي لا يتقلب في آرائه وأداء الرسالة يقتضي اتجاهاً واضحاً وثباتاً على مبدأ واحد » [1] .

القسم الثالث

أما أصحاب القسم الثالث فيقفون بين القسمين الأولين موقف المعتدل الحذر الذي لا ينكر رسالة الشابي كأصحاب القسم الثاني ولا يقول بكمالها كأصحاب القسم الاول ... ولكنه يقول كما قال الاستاذ محمد العروسي المطوي : « ان الموت الباكر وان استطاع أن يقضي على الرسالة المنشورة قبل أن تنضج فانه لم يقض على الموهبة والالهام [2] ونحن اذا نظرنا الى ما اعترى الشابي في حياته القصيرة والظروف التي أحاطت به تلك عذرناه اذا هو لم يكمل رسالته أو أن الاقدار لم تمهله حتى يتمم تلك الرسالة » [3] .

هذه هي أهم الآراء التي قيلت في رسالة الشابي ولنبدأ الآن في مناقشتها .

---

(١) شاعران معاصران .
(٢) ذكرى الشابي ص ١٦ .
(٣) المصدر السابق .

الرأي الاول : ويمثله الاستاذ أبو القاسم كرو ، وهو وجيه في حد ذاته لولا أنه كان على حساب الشعب .

فالاستاذ كرو يرجع سبب نقمة الشابي وثورته على أبناء وطنه الى عامل عام لعله ان يكون تسويغاً للتناقض الذي قد يبدو في شعره وهو حين يرجع سخط الشابي الى هذا العامل انما يريد أن يبرئه من هذا التناقض ويعصمه من الوقوع في هذا الخطأ .

أما هذا السبب أو العامل فهو أن الشعب كان راضياًبالذل والمهانة ، مستكيناً للظلم ، قابعاً في زوايا العبودية المظلمة .

فلنستمع اليه يقول : « وكان الشابي شاعراً متألماً شديد الاحساس بآلامه كثير الشكوى والتبرم منها ، ولكن آلامه لم تكن في أكثرها إلا آلام شعبه التي تجاوبت اوجاعها مع يقظة قلبه وشدة احساسه القوي بها وبآثامها وظلامها »(١) .

فقد كان الشعب التونسي في ذلك الحين أي بين سنتي ١٩٢٨ ــ ١٩٣٤مستسلماًلتقاليد متعفنة تحجب عنه النوروالحياة وكل احساس بالكرامة المهانة والحال الذليل (٢) .

ويقول : « وكذلك كان الشعب نائماً في شقائه مستسلماً

---

(١) و (٢) كفاح الشابي ص ٦٢ ــ ٦٣ .

للتعاسة والبؤس مؤمناً بصدق هؤلاء الموتى من الاحياء والاحياء من الموتى »[1] .

والملاحظ أن النص الاول كان مقصوداً به ركون الشعب الى الذل وخضوعه الى الاستعمار وهذه التهمة التي رمى بها الاستاذ كرو الشعب لا يمكن أن تثبت أمام التاريخ ، والواقع يشهد بعكس ذلك .

فتاريخ الشعب وتاريخ تونس في حياة أبي القاسم يبتدئان بالفترة التي سافر فيها الشابي الى تونس (العاصمة) حيث التحق بجامع الزيتونة وبدأ وعيه ينمو وعبقريته تتفتح ... وتنتهي تلك الفترة بموته .

وسأورد باختصار أهم الاحداث والتطورات التي مرت بتونس في تلك الفترة حتى نستطيع أن ننفي ما أراد اثباته الاستاذ كرو وهو رمي الشعب بالاستكانة للاستعمار والرضوخ له .

ان كتب التاريخ تحدثنا عن ثورة الشعب أيام المقيم العام[2]

---

(١) الشابي ص ٥٤ .

(٢) يطلق ابناء المغرب العربي لفظ المقيم على الحاكم العام الفرنسي .

(لوسيان سان) وعند زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية(ميلران) لتونس [١] .

وكذلك تحدثنا عن ثورة العمال قبل تأسيس محمد علي (لجامعة عموم عمالة تونس) وبعده الى أن نفت السلطة الفرنسية زعماء الحركة العمالية هذه [٢] .

وكذلك تحدثنا عن ثورة الشعب وتصادمه مع القوات الفرنسية عندما أقامت حكومة الحماية تمثالاً للكاردينال (دولافيجري) [٣] .

كما تحدثنا عن الاضرابات التي شملت حتى موظفي الدولة، والمظاهرات الكبرى التي وقعت في مختلف جهات القطر التونسي عندما أرادت الحكومة الفرنسية اسناد القضاء في المحاكم التونسية الى قضاة فرنسيين [٤]

وتصف لنا ثورة الطلاب الزيتونيين واضرابهم ومطالبتهم بالاصلاح [٥]

---

(١) تونس الثائرة ص ٤٤ والحركات الاستقلالية في المغرب العربي ص ٦٤ .
(٢) الندوة س ١ ع ١٢ ص ١٤ .
(٣) و (٤) الحركات الاستقلالية ص ٦٨ ــ ٦٩ .
(٥) الحركة الادبية والفكرية في تونس ص ١٥٢ .

وأخيرا تحدثنا عن رد الفعـل الشعبي ازاء حملة الاستعمار الصليبية والمتمثلة في حادثتي (المؤتمر الافخارستي)والتجنس[1]

هذه هي حياة تونس في حياة أبي القاسم ومن هذه الحياة تتجلى لنا الحقيقة التي أنكرها الاستاذ كرو ورمى الشعب بضدها في نصه الأول .

أما النص الثاني فيفهم منه أن الاستاذ كرو كان يقصد ب (الموتى من الاحياء والاحياء من الموتى) وبالاشخاص الذين استسلم اليهم الشعب ـ حسب ادعائه ـ رجال الدين ، وبخاصة منهم رجال الزيتونة ، وهذا الفهم تأخذه من قوله قبـل ذلك « وليس الاستعمار وحده العامل على محاربة الجهود المخلصة النزيهة الرامية الى تحرير الشعب التونسي من عبوديته وفقـره ومن مرضه وجهله بل كانت تساعده وتأتمر بأمره عناصر رجعية خائرة تثير في الشعب روح العصبية الدينية المزيفة »[2] .

والاستاذ ابو القاسم يكرر هذا الزعم في مكان آخر فيقول « وكان ثمة رجال رجعيون فرضوا أنفسهم على الشعب وعلى قيادته ، وتوجيهه باسم الدين أي باسم الله[3] .

---

(١) هذه تونس ص ٨٢ والحركات الاستقلالية ص ٧٢ ـ ٧٣
(٢) الشابي ص ٥٤
(٣) كفاح الشابي ص ٦٣

ونحن نسأله : كيف توفق بين قولك إنه بين عامي ٩٢٨ـ٩٣٤ كان الشعب مستسلماً للنوم العميق راكناً للذل مخدراً من طرف رجال الدين ، وبين اثباتك لحركة ثورية قام بها الطلبة ضد الرجعية والرجعيين من رجال الدين ومشايخ الزيتونة ؟ [١] .

ثم ها هو الشيخ محمد الفاضل بن عاشور يثبت لنا أن الشعب كان يؤيد الطلبة في مطالبتهم بالاصلاح فيقول في هذا الصدد « وتواترت مظاهرات الطلبة واضرابهم وتشكلت هيئة لقيادة حركتهم باسم لجنة الطلبة وانقسمت الامة بين مؤيدين للطلبة ومنكرين عليهم الا أن شق المؤيدين كان راجحاً في أكثرية الصحف المناصرة له وموقف رجال السياسة الوطنية في تأييده ولم تقر عجاجة هذه الفتنة الا في شوال ١٣٥٠ مارس ١٩٣٢ باستقالة الوزير الاكبر [٢] ثم شيخ الاسلام [٣] .

ثم نسأل الاستاذ أبا القاسم ثانياً : متى قاد تونس رجال الدين ؟ وكيف تثبت أن هؤلاء الرجال الرجعيين قد فرضوا أنفسهم على قيادة الشعب ؟ ان التاريخ ليبرأ من هذا ولا يقره ،

---

(١) الشابي ص ٤٨ .

(٢) هو خليل بو حاجب وكان من المعارضين لحركة الاصلاح وكذلك كان شيخ الاسلام .

(٣) الحركة الادبية ص ١٠٤

بل يقرر عكسه ، اذ أننا نرى مثلاً عندما أصدر بعض رجال الدين فتوى في اباحة التجنيس ، كيف ثار الشعب على هؤلاء الرجال ورماهم بالمروق من الدين والخروج من صف الوطنية .

بعد هذه المناقشة القصيرة لرأي الاستاذ كرو أود أن أقول : إن أكثر الذين قالوا بهذا الرأي قد قالوه عن تقليد له ، ولم يحاولوا أن يشغلوا تفكيرهم وفضلوا أن يعيدوا مالاكه غيرهم من قبل لأنه سريع الهضم ..

وانني اذ أقدر الاستاذ أبا القاسم وأشكر له مجهوده الجبار الذي بذله في دراسة أبي القاسم الشابي وشعره والذي يتمثل في كتابيه (الشابي) و (كفاح الشابي) لا أستطيع الا أن ألوم هؤلاء الذين أخذوا برأيه مع عدم التحقيق والتبصر مما أدى بهم الى كثير من التناقض وكثير من المغالطات ..

واذكر بين هؤلاء أبا القاسم محمد بدري فهو يقول ان الشابي « لم ييأس من الاصلاح بل كان يستبعد زمنه لأن شعبه لم يبلغ سن النضج ولم يقم على سوقه ينافح ويكافح ليرد حريته المسلوبة فيحظى بكمال استقلاله »[1] .

والملاحظ أن أبا القاسم بدري لم يحاول ــ في دراسته لأبي القاسم الشابي والاحداث الوطنية ــ أن يتعب نفسه قليلا ويكلفها

---

(١) الشاعران المتشابهان ص ٥٣ .

بالتعمق في الدراسة بل حتى بالاطلاع على ما قاله الشابي في هذا الميدان ، بل اكتفى في كل ما قاله بالاعتماد على قصيدة واحدة هي قصيدة (النبي المجهول) وهكذا يكبو التقليد ويقع المقلد.

ويقول بهذا الرأي أيضاً بوراوي الملوح فهو يستعرض بعض قصائد الشابي ثم يقول « واننا نشاهد في مثل هذه القصائد من المواقف التي تبدو غريبة فنتوهم الاضطراب والفوضى ولكن شيئاً من ذلك لم يكن » ثم يستطرد بعد هـذا قائلا إن الشابي « كان يريد ايقاظ العزائم النائمة وبعث البطولة الدفينة في أعماق شعبه فهو يصرخ في شعب مكبل بقيود العبودية والجمود »[1].

فهل كان الشعب جامداً ؟ وهل كانت عزائمه نائمة ؟ اللهم ان التاريخ يشهد بعكس ذلك .

الرأي الثاني : ويقول به الاستاذ عمر فروخ ، وهـو رأي لا يمثل الحقيقة ويدل على روح متحيزة من الاستاذ فروخ دفعته الى انكار مالأبي القاسم من فضل على شعبه وعلى وطنه والى وسمه بالهدام المذبذب الذي يتخبط في ظلام الحياة على غير هدى ولغير غاية .

ولعل رأيه هذا نشأ لديه رداً على الاستاذ كرو الذي فضل

---

(١) مجلة الشباب س٢ع٦ص٣٩ .

الشابي على بعض شعراء المهجر من الذين يحتلون مكانة مرموقة في نفس الاستاذ فروخ .

انني أستطيع أن اجاري الاستاذ فروخ لو كان نقده متصلاً بالبناء الشعري أما وأن هذا الانتقاد موجه الى نفسية الشابي نفسه فانني أقول له : ان الشابي لم يكن متناقضاً في شعره ولا هداماً ـ كما سأبين فيما بعد ـ وحتى لو سلمت للاستاذ فروخ جدلاً بأن في شعر الشابي بعض التناقض فهذا لا ينفي عنه رسالته ولا يجعل منه إنساناً يحمل في يديه معولاً ليحطم كل شيء الامة والوطن والبلاد .

أن من حق صاحب الرسالة أن ينقم وان يسخط على الذين يريد أن يبلغهم رسالته اذا هم لم يستجيبوا لهـا ، وقديماً قال النبي نوح « رب لا تذر علـى الارض من الكافرين ديارا » . والشابي لم يكن نبياً بالمعنى الديني فكيف نعصمه من الوقوع في هذه النقمة على الشعب الذي لم يستجب له ورماه بالجنون مرة وبالكفر اخرى وأنكر عليه قيمته الادبية وروحه الانسانية ؟.

أما الرأي الثالث : فيمثله الاستاذ محمد العروسي المطوي .. وقد قلت عنه سابقاً إنه لم يتطرف في الحكم ووقف موقف المعتدل الحذر ، وعلى هذا فانني أؤيده مع اثبات حقيقة أخرى أغفلهـا الاستاذ العروسي .

وهذه الحقيقة مستمدة من التاريخ ومن النصوص الشعرية التي صاغها أبو القاسم نفسه وتتمثل في القول بأن الشابي قد أدى رسالته كاملة بالنظر الى سنه وأنه لم يكن متناقضاً في نظرته الى الشعب ولم يكن متقلباً في آرائه ولكنه كان ينظر الى الشعب من زاويتين •• زاوية كان يرى الشعب منها يتصارع مع الاستعمار وقوى الظلم والطغيان وزاوية اخرى كان يرى الشعب منها واقفاً له ــ أي للشابي ــ بالمرصاد يحاسبه وينقده ويهاجمه •

هناك اذن اعتباران يجب أن نلاحظهما في دراستنا للشابي مع الشعب • الاعتبار الاول ــ هو موقف الشعب من الاستعمار ومنه استمد الشابي الروح الثورية ــ ضد هذا الاستعمار ــ فتغنى للشعب وافتخر به ودافع عنه •

أما الاعتبار الثاني : فهو موقف الشعب من الشابي نفسه ومنه سخط الشابي ونقم عليه وندد به وتشاءم منه •

وفي الفصلين القادمين سأحاول شرح هذه النظرية وتحليلها معتمداً على النصوص التاريخية وعلى ماجاء في ديوان الشابي كما سأحاول تحليل نفسية الشابي على هذين الاساسين المتمايزين واذكر خلال هذا نتائج الاحداث في هذه النفسية •

الشّابي
في ثورته على الاستعمار

عناصر الشخصية الثائرة

لقد اجتمعت في حياة الشابي ثلاثة عناصر كونت فيه هذه الشخصية الثائرة الجامحة ، وخلقت منه شاعر الشعب الذي يهاجم المستعمرين ويدافع عن الشعب بكل ما أوتي من قوة . هـذه العناصر هي :

أولا ــ كفاح الشعب

ولد الشابي وتونس ترزح في قيود العبوديـة والمهانـة ، ونشأ والاستعمار يمتص خيرات بلاده ، ويحصد أبناء شعبـه فتلقى دروس الحقد والكراهية من المستعمرين ونمت في نفسه بذور الثورة على الطغيان وامتلأ قلبه بعواصف السخط والنقمة على اولئك الذين سلبوا حرية وطنه واغتصبوا حقه في الحياة والعزة .

وفي حياته هذه رأى القوة الشعبيـة التي لم تلن أو تهن أمام قوى الاستعمار ورأى الشعب في ثوراته المتتالية وانتفاضاته المتتابعة ورأى تحمله لكل أنواع الارهاق وصنوف التنكيل في سبيل استرداد حريته المسلوبة وكرامته الجريح وحقه المغتصب .

وما إن بدأ وعيه يتفتح وساعده يستد حتى خاض مع الشعب معركة الحرية والمجد وناضل قوى الظلم في سبيل تحقيق الحياة الكريمة لشعبه ولوطنه .

والدارسون لأبي القاسم الشابي لم يختلفوا في أنــه قاوم المستعمرين وحاربهم في غير هوادة وان قصائده التي قالها في الثورة على الاستعمار تعتبر من عيون شعره بل من عيون الشعر العربي • ولكن بعض هؤلاء كان ينظر الى الشابي على أنه رجل (قلم) ولسان وأن حياته الكفاحية ضمن كفاح الشعب لم تتعدّ القول الى العمل الايجابي والنضال الفعلي ••

يقول الاستاذ الهادي العبيدي « ولم يكن الشابي من رجال السياسة أو الادارة فيسعى لقلب النظام أو قائداً عسكرياً فيشنها حرباً دامية يزحزح بها تلك الهياكل المتجبرة عن عروشها ليفسح للشعب طريق الحرية والحياة ، الحياة الانسانية الكاملة ، وانما كان شاعراً والشاعر لا يملك سوى قلبه »(١) •

ولا يخفى ما في هذه النظرة من غلط وتشويه للحقيقة اذ أنه من الثـــابت أن الشابي قـــام بأعمـــال بطولة ضمن الكفـــاح الشعبي ••

وهذا الاستاذ أبو القاسم كرو يقول « بذل الشابي نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً نفاد حركة طلاب الزيتونة التي كانت تهدف الى اصلاح مناهج التعليم والادارة في الكلية وتزعم اضرابهم

---

(١) مجلة الاسبوع التونسية .. عن الشابي ص ٥٥

عن الدروس ، وترأس لجنتهم وسير أعمالها بوطنية أعجب بها الجميع » [1] .

ثانيا ـ اختلاطه بالطبقات الشعبية

قدم الشابي الى تونس (العاصمة) ليتابع تعلمه بجامع الزيتونة سنة ١٩٢١ [2] . وهناك اختلط بالعناصر المختلفة من طبقات الشعب في الجامع وفي مدارس سكنى الطلبة بحكم سكناه فيها ..

وكانت هذه المدارس تضم الخليط العجيب : فمن أبناء الطبقة العمالية الى أبناء الفلاحين الى أبناء الطبقة الوسطى من موظفين وتجار الى أبناء البرجوازيين من ملاك وأصحاب أعمال ...

ومن اختلاطه هذا تكونت له فكرة واضحة عن حياة الشعب وما يقاسيه من آلام الجوع والفقر والمرض والحرمان . واذا كان الغني لا يقاسي مثل هذه الآلام فانه يقف مع الفقير في معاناة الاضطهاد والتعسف وخنق الحرية وهذا ما عبر عنه أبو القاسم في قوله :

في ظلام الكهوف أشباح شؤم   وبهذا الفضاء أطياف نحس

---

(١) الشابي ص ٤٨

(٢) يقول الاستاذ محمد الامين الشابي في المقدمة ان اباالقاسم قدم تونس وهو في الثانية عشرة من عمره عام ١٩٢٠ ولا يخفى ما في هذا القول من غلط اذ لو كان الامر كذلك لكانت سنه وقتئذ احدى عشرة سنة فقط .

وخلال القصور أنات حزن وبتلك الاكواخ انضاء بؤس
والقضاء الأصم يعصف بالنا س ويقضي مابين سيف وقوس

وعلى هذا فانني أخالف الدكتور عمر فروخ الذي يجعل (فقر) الشابي من العناصر المكونة لشخصيته ناسياً اختلاطه مع طبقات الشعب حين يقول بعد تعداد العناصر « اذا كان والد أبي القاسم الشابي قد ضمن لابنه جميع حاجاته المادية والمعنوية فهذا لا يعني أن الوالد كان غنياً . ثم مات الوالد فتعرض شاعرنا للبؤس وعضه ناب الفقر فجعله يشعر شعوراً صحيحاً بحال معظم التونسيين فكان شعره من هذه الناحية تعبيراً صادقاً عن حاله وحالهم » [١] .

وعندي أن هذا الاختلاط مع طبقات الشعب منذ قدوم الشابي الى تونس يدحض ما زعمه الدكتور فروخ ويثبت أن تكوين الشابي الشعبي وشعوره بما يشعر به أبناء وطنه لم يكن وليد موت والده وانما كان قبل ذلك بثماني سنين .

نعم ان موت والد الشابي ثم مرض الشابي نفسه وتجواله في بعض مناطق القطر التونسي قد زاده اختلاطاً بالشعب وتعرفاً على بعض نواحيه التي ربما كان الشابي يجهلها ولكن موت والد الشابي لم يكن في حد ذاته النقطة التي بدأ منها الشابي يشعر بشعور الشعب ... ثم أن فقر الشابي لم يكن ثابتاً .. ولعل

---

(١) شاعران معاصران ص ١٦٣

الدكتور فروخ كان معتمداً في نظريته هذه على قول الاستاذ ابي القاسم كرو « فقد كان أبوه يقو منحوه بكل حاجاته ويوفر عليه راحته ورفاهيته وهناءه فاذا بكل ذلك ينهار مرة واحدة واذا هو مسؤول عن كل ما خلفه والده في الحياة من أم ثكلى وأبناء صغار ، وأملاك مبعثرة هنا وهناك » [1] .

لعل الاستاذ فروخ قد اعتمد على هذا القول وفسر انعدام الراحة والرفاهية بـ (الفقر) في الوقت الذي تثبت فيه جملة (وأملاك مبعثرة هنا وهناك) عدم صحة هذا التفسير وتذهب بنا الى القول بأن عدم الراحة والرفاهية والهناء انما كان بسبب المسؤولية والتفرغ لشؤون الاسرة وحاجياتها .

والشابي نفسه لم يحدثنا في قصيدته التي رثى بها أباه عن هذا الفقر وهذا الاحتياج المادي وانما حدثنا عن اضطرابه الفكري ولوعته النفسية ، حيث تركه أبوه وحده أمام أعدائه الكثيرين وقد كان له خير نصير .. انه يذكر في قصيدته (يا موت) أنين الوحدة ويكرر شقاء الفكر ولا نراه أبداً يتعرض الى مرارة الجوع والخصاصة :

يا موت قد مزقت صدري وقصمت بالارزاء ظهري
يا موت ماذا تبتغي مني وقد مزقت صدري

---

(1) الشابي ص ٤٩

مــاذا تــود وأنــت قــد سـودت بالاحـزان فكـري
وتركتني فـي الـكائنــات أئـن منفـرداً بإصـري
يـا موت قـد شـاع الفؤاد وأقفرت عرصـات صـدري
وغـدوت أمشـي مطرقـاً مـن طول ما أثقلـت فكري

ثالثا ـ رقة احساسه

واذا اختلف بعض النقاد في ناحية من نواحي العنصريـن السابقين فانهم اتفقوا في حساسية الشابي ورقة شعوره التي عبر عنها هو في قوله :

والشقي الشقي من كـان مثلي في حساسيتي ورقـة نفسي

ولعل رقة الاحساس هذه هي التي جعلت الشابي شقياً في حياته . بائساً بين أقرانه ثائراً على كل شيء متمرداً على سائر الأوضاع .

إنه يتألم ويتوجع ويشعر أن كل الدنيا تعذبه وتحاول أن تنال منه وهو من أجل ذلك يخاطب الله حين يقول :

أنـت عذبتني برقـة حسي وتعقبتنـي بـكل الدواهي
بالأسى بالسقـام بالهـم بالوحشـة باليـأس بالشقـاء المتنـاهي

وهذه الحساسية وهذه الرقة والشعور هي التي جعلتـه يتجاوب مع آمال الشعب ويحس بآلامه ويعبر عنها في أسلوب قوي صادق ... وهي التي كتبت له التقدير ولشعره الخلود.

مدى تأثره بالحياة السياسية

رأينا في ما تقدم العناصر التي كونت شخصية الشابي المدافع عن الشعب الذائد عنه الثائر في وجه المستعمرين المندد بهم •

وسنرى من خلال شعره نتيجة الاحداث السياسية في نفسيته والتي منها تقرر أنه لم يهادن الاستعمار بل قاومه أشد المقاومة وكان يبعث من قلبه الحر المؤمن أقوى الصرخات الانعتاقية ويعبر عن روحه الفدائية المستميتة في حب الوطن والاخلاص له حتى الموت حين يخاطب تونس قائلاً :

انا يا تونس الجميلة في لج الهوى   قد سبحت اي سباحه
شرعتي حبك العميق واني   قد تذوقت مره وقراحه
لا ابالي وان اريقت دمائي   فدماء العشاق دوما مباحه

ان قلبه مليء بالأمل مفعم بالايمان لا مكان لليأس فيه ولا يستطيع التخاذل أن يتطرق اليه ما دام شعبه مؤمناً بحقه مناضلاً عنه •

ان ذا عصر ظلمة غير أني   من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن   سترد الحياة يوما وشاحه

ويستبد الاستعمار وتتحرك قوى الظلم والجبروت ويستأسد أعداء الحرية ويزرع الجناة بذور الشر في تونس ويفتكون بشعبها الأعزل فيثور أبو القاسم ويندد بهم وباستهتارهم بحقوق

الشعب وبأرواح الشعب في نقمة صاخبة :

ألا أيهـــا الظـالم المستبـد حبيب الفنـاء عـدو الحيـاه
سخرت بانـات شعب ضعيف وكفـك مخضوبـة من دمـاه
رويدك لا يخدعنـك الربيـع وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففي الافق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الريـاح

وهو في هذه الصرخات كثيراً ما كان يفخر بالشعب ويعتز بنخوته وحميته ويهدد الظلم والظالمين بأبناء هذا الشعب وقوتهم قائلا :

فيـا أيها الظالم المصعر خـده رويدك ان الدهر يبني ويهـدم
سيثـار للعز المحطـم تاجـه رجال اذا جاش الردى فهم هم
رجال يرون الذل عاراً وسبـة ولا يرهبون الموت والموت مقدم

ولكن هل يبلغ هذا الصدى آذان الغاصبين فيكفون عـن تعسفهم وارهاقهم للشعب ؟..

وهل استسلم الاستعمار أمام قوة الشعب ، المتطلعة نحو النور ، أمام إعصار الشعب الذي يهب في وجه الطغيان ؟

كلا ... لم يستسلم ، وانما هو يفكر في كل ساعة بل في كل لحظة باحثاً عن لعبة جديدة تمكنه من تشويه الكفاح الشعبي والنضال الوطني والقضاء على روح الشعب وعلى كل معنوياته ومقوماته ..

ويحذر الشابي الاستعمار من تهوره واندفاعه وراء أهوائه الوحشية ومطامعه الجنونية .. يحذره من وثبة الشعب وانتفاضة الشعب وقوة الشعب . معلناً أن الشعب لا بد أن ينتصر عليه ويرمي به خارج الحدود .

حذارِ فتحتَ الرمـاد اللهيبْ ومن يبذر الشوكَ يجنِ الجراحْ

❋ ❋ ❋

تأمل هنـالك اني حصــدت رؤوس الورى وزهورَ الأمـلْ
وروّيت بالـدم قلب التـراب وأشربتـه الدمـع حتى ثمـلْ
سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العـاصف المشتعـلْ

وينتفض الشعب ويطالب بحقه في الحياة وحقه في الحريـة وحقه في الكرامة فيتصامم المستعمرون في حـين تسمع قوتهم الارهابية .. تسمع لتجيب باطلاق نيران الوحشية وفي أملهـا أن تخمد صوت الحق فيما ينطلق صوت أبي القاسم مردداً في قوة وعزم وايمان وإصرار :

يقولون صوت المستذلـين خافتٌ
وصوتَ طواغيت التجبر أضخـمُ
وفي صيحة الشعب المسخّر زعزع
تخر لهـا شمُّ العروش وتهـدمُ
ولعلعة الحق الغضوب لها صـدى
ودمدمة الحرب الضروس لهـا فمُ

اذا التفَّ حول الحق قوم فإنه
يصرِّمُ أحداثَ الزمان ويبرمُ

وقد التف الشعب العربي في تونس حول الحق ودافع عنه بالمال والدم والروح ولم يهن ولم يفشل وانما كان يردد في ثوراته مع أبي القاسم الشابي :

اذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدرْ
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسرْ

ومرة أخرى ينطلق صوت أبي القاسم على لسان الايام داوياً في آذان الجبابرة السفاحين •

يا أيها السادرُ في غيِّه
يا واقفاً فوق حطام الحياهْ
مهلاً .. ففي أنات من دستَهم
صوتٌ رهيبٌ سوف يدوي صداهْ
يا أيها الجبار لا تزدرِ
فالحق جبار طويل الأناهْ
يغفي وفي اجفانه يقظةٌ
ترنو الى الفجر الذي لا تراهْ

وقد أشرقت أنوار هذا الفجر على ربوع تونس بعد عشرين سنة من وفاة الشابي وبعد ثلاثة وسبعين عاماً قضاها الشعب

العربي بتونس في كفاح مستمر ونضال دائب وثورات متتالية..

وما زال الشعب في تونس يعمل ليتخلص من بقايا الأدران التي خلفها الاستعمار وستكون الحرية لتونس ... ولشعبها الحياة .

تأثير الحالة الاجتماعية في نفسية الشابي

منذ أن دخل المستعمرون الفرنسيون أرض تونس العربية وهم يحاولون بسط نفوذهم بمختلف الوسائل والسبل . ونجحوا الى حد بعيد في مراميهم الاستعمارية بعد أن رأوا أن أحسن الطرق المؤدية الى أغراضهم تتمثل في تجهيل الشعب وتفقيره ..

اغتصبوا الاراضي و[illegible] الخيرات واستغلوا الشعب..

وكان نصيب المواطنين من أصحاب الحضارة ورسل السلام والمدينه ، الجهلَ والفقرَ والمرضَ .. وعندما بدأ الشابي يدرك حقيقة الحياة ومعنى الوجود كان الاستبداد الاستعماري قدبلغ غايته ووصل القمة حتى استوى امامه كل المواطنين العرب وشمل كلاً من صاحب القصر وساكن الكوخ :

في ظـــلام الكهوف أشباحُ شـؤم
وبهـة الفضـاء اطيـاف نحس

وخـلالَ القصور أنات حـــزن
وبتلك الاكـواخ انضـــاء بـؤس

واما رعونة الظلم الاجتماعي ووحشية الاستبداد العنصري وقف الشعب ووقف معه الشابي يناجز هـذا الاستبداد وذلك الظلم . الشعب بكفاحه العملي والشابي بتصويره لما يقاسيه أبناء وطنه وما يلاقونه من دعاة المدينة تارة وبمشاركته الفعلية فـي المعركة تارة اخرى ..

وقد رأينا فيما مضى مدى تجاوب الشابي مع الشعب ومدى ثورته على الطغيان والمستعمرين من الناحية السياسية . أما من الناحية الاجتماعية فان الشابي لم يكن أقلَّ حماسة منه في الناحية السياسية واذا أردنا أن نربط بين الناحيتين السياسيةوالاجتماعية في نفسية الشابي فلنقرأ له قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس)التي هي فلسفة القوة في شرعة الغاب ... إنها فلسفة القوي على الضعيف حين يقول له :

يـا أيهـــا الفرُ المثرثـر إننـي
ارثـي لثورة جهلـك الثـلابِ
والفـِر يعـذره الحكيمُ إذا طغـى
جهـلُ الصبا في قلبه الوثـابِ

فاكبح عواطفك الجوامح إنها
شردت بلبك واستمع لخطابي

إني إله طالما عبد الورى
ظلي وخافوا لعنتي وعقابي

وتقدموا لي بالضحايا منهم
فرحين شأن العابد الأواب

وسعادة النفس النقية أنها
يوماً تكون ضحية الأرباب

فتصير في روح الالوهة بضعة
قدسية خلصت من الأوشاب

أفلا يسرك أن تكون ضحيتي
فتحل في لحمي وفي أعصابي ؟

ويتساءل (الشحرور) الضعيف عن العدل وعن المساواةوعن ق الجميع ولكنه يعرف الحقيقة بعد تساؤله هذا فيقول :

لا ((أين ؟)) فالشرع المقدس ههنا
رأي القوي وفكرة الغلاب

وسعادة الضعفاء جرم ماله
عند القوي سوى أشد عقاب

ولتشهد الدنيا التي غنيتها
حلم الشباب وروعة الاعجاب

ان السلام حقيقة مكذوبة
والعدل فلسفة اللهيب الخابي

لا عــــدل إلا إن تعــادلت القــوى
وتصــادَم الارهــــابُ بالارهــاب

وعندما يصل الى هذا الحد من الادراك يجيب الثعبان القوي المتأهب للانقضاض عليه بصوت يخنقه الموت •

لا رأي للحقِّ الضعيف ولا صــدى
الــرأيُ رأيُ القــاهر الغــلاب

فافعل مشيئتك التي قد شئتهــا
وارحم جــلالك من سماع خطابــي

أن قصيدة (فلسفة الثعبان المقدس) هذه هي النقطة التي تجمعت فيها فلسفة الشابي السياسية والاجتماعية ومنها تتجلى لنا عبقرية الشابي وحكمته ونظرته الى الكون ، نظرة المتبصر الواعي والفيلسوف المتأمل •

والشابي ينظر الى رعايا الثعبان فيرى اليهم ، تطبعهم سمات الذل وتكبلهم قيود الرجعية وتظللهم سحب البؤس والشقاء فيعرض لنا صوراً مما يرى (في فجاج الآلام) لفتاة وشاب وشيخ ••• يقول عن الفتاة :

بــين القبــور فتــاة جــار الزمــانُ عليهــا
فافتكّ منهــا بعنف كفــُ الــردى أبويهــا
تقــول والليــل ســاج والقبرُ مصــغ اليهــا :
ياليتني مــتّ مــن قبــل أن تســوءَ حياتــي
وينضبَ الدمع من لو عتــي ومــن حســراتــي

مـن لـي بحفـرة قبر   تضمنـي وشكاتــي

ولِمَ تشتكي هذه الفتاة ؟ ولِمَ تتمنى الموت ؟ ولم لاتنظر الى الدنيا بعين متفائلة وقلب باسم ؟ ألأن الموت قـد اختطف أبويها ؟ أم للنتيجة التي آلت اليها والحالة التي أصبحت عليهابعد موتهـا ؟

إن الشابي لم يقل لنا لماذا كانت تتمنى الموت ، ولماذاكرهت الحياة ولكننا ندرك أنها كانت تعاني أزمة عنيفة وأن أبويها لم يتركا لها سنداً في الدنيا بعد وفاتهما • بل خلفاها بينأنياب البؤس والحرمان في مجتمع ماتت فيه العدالة وبغى الاستغلال وتنمّر الانســان •

ومن أجل هذا كانت تتمنى هذه الفتاة الفناء وتدعوه اليها •

وعندما يتكلم الشابي عن الفتى فإنه يعالج مشكلة اجتماعية تتمثل في رواسب القديم وتغذيها عناصر الجهل والرجعية •

إنها مشكلة المرأة الشرقية بصفة عامة والمرأة التونسية بصفة خاصة •• ومشكلة الشباب الذي لا تمكنه الرجعية من الجهر بما يخفق به قلبه ، وتهفو اليه نفسه وتحن اليهعواطفهووجدانه•• فيعاني ما شاء له الدهر أن يعــاني •• ويقضي وفي قلبه نيران الجوى تتأجج ورياح الهوى تعصف :

في الحي صبٌ يعاني في الصدر داءً دفينا
وفي الفؤاد جوى كا مناً ، وحباً مكينا
حتى دهته الليالي وجرّعته منونه
فشيع الميتَ جمعٌ من حيه يندبونه
حتى اذا ما ارادوا رصفَ الصفائح دونه
ناحت عليه فتاةٌ « ويلي .. لمن تتركونه؟ »

أما أولئك المساكين العجز الذين قعدت بهم الايام وشربت من دمائهم السنون فلم تبق منهم سوى هياكل كهياكل الاموات فيصورهم لنا في حالة ذلك الشيخ الذي يقول عنه :

شيخ كما شاء دهر الاسى .. وحيدٌ شتيتْ
بين الخرائب يمسي على الطوى ويبيتْ
في ظلمة الليل فاضت على الوجود حياتهْ
وطرفه يرمق النجم ... ملؤه عبراتهْ
وما حواليه الا الخرابُ يشجي صماتهْ
فما بكاه فتاهُ ... ولا بكته فتاتهْ

ونقول هنا انصافاً للواقع وانتصاراً للحق إن الشابي لم يتعمق في عرض هذه الصور أو بعبارة اخرى لم يحلل نفسية كل من هؤلاء الذين عرضهم في لوحاته واكتفى باظهار دموعهم

واسماع أناتهم ولم يحاول معالجة الأسباب التي انتهت بهؤلاء الى حالهم التي صورها وجلاها •

ولكن يمكن لنا أن نرجع العامل في هذه الحال الـى سبب واحد هو موت الحساسية في رعايا الثعبان المقدس •

إنه السبب الرئيسي في مصير هؤلاء الضحايا ، لذلك نرى أبا القاسم في ختام هذه القصيدة يدعو طائر الشعر لينفخ فيهم روحا خصيبة من لهيب السماء • ويبعث بسحره عـزم الشباب واصراره وقوته في قلوبهم :

يا طائـر الشعـر روّحْ على الحيـاة الكئيبهْ
وامسح بريشك دمـع القلوب فهـي غريبـهْ
وعزّها عن اساهـا ، فقـد دهتهـا المصيبهْ
وأنت روحٌ جميـلٌ ، بين الهضاب الجديبـهْ
فانفخ بهـا من لهيب السماء روحاً خصيبـهْ
وابعث بسحرك في قلبهـا ضـرام الشبيبـهْ

وجدير بالذكر هنا أن الشابي كان يدعو الشعب دائماً الـى يقظة الاحساس والشعور ويرجع نهضة الشعوب الى هذه اليقظة في الحس كما يرجع استعبادها الى موت الحساسية فيها •

لذلك نراه هنا يدعو طائر الشعر الى أن يبث الشعور فـي القلوب الدامية التي تعيش غريبة في هذا الوجود حتى تشعـر

بكيانها وتنتفض وتثور لنيل حقها في الحياة بعد أن تئـد فـي نفسها روح الشيخوخة وتبعث في قلبها روح الشباب ٠

ولو انتقلنا في تجوالنا (في فجاج الآلام) ومشينا قليلاً في ديوان الشابي لرأينا (ابناء الشيطان) وقد دفعتهم نزعات الشر الى أن يشوهوا هذا الوجود ويلطخوه بدماء الضحايا المساكين ولعذرنا الشابي اذا رأيناه ساخطاً على الورى ناقماًعلى البرايا ٠٠ متسائلاً :

أي ناس هذا الورى ؟ ما ارى إلا برايا شقيةً مجنونهْ
جبلتها الحياة في ثورة الياس من الشركي تجنَ جنونهْ
فاقامت له المعابد في الكون وصلت لهوشادت حصونهْ

ويكفي هنا أن نستعرض من هذه القصيدة ثلاث شخصيات عاشت ضحية لابناء الشيطان ٠٠ الشخصية الاولى شخصيةفتاة جميلة طافت حولها الذئاب الجائعةتحاول اسقاطها ٠٠ والشخصية الثانية شخصية مجرم دفعه إلى دنيا الاجرام كفران المجتمع بـه وتنكره له أما الشخصية الثالثة فهي شخصية نبي حاول أن ينشر رسالته في الناس فأنكروها واضطهدوه ورموا به في النار ٠

يعرض لنا الشخصية الاولى فيقول :

كم فتاة جميلة مدحوها وتغنوا بها لكـي يسقطوهـا
فاذا هانت الفضيلة عابوها وان باعت الخنـا عبدوهـا
أصبح الحسن لعنة،تهبط الأرض،ليغوي ابناؤها وذووها

أما الشخصية الثانية فيقدمها لنا محللاً الدوافع التي دفعت بها الى الاجرام حين يقول :

وشقي طاف المدينة يستجدي ليحيا فخيبوه احتقارا
ايقظوا فيه نزعة الشر فانقض على الناس فاتكاً جبارا
يبذر الرعب في القلوب ويذكي حيثما حل في الجوانح نارا

ويقول عن النبي وهو الشخصية الثالثة :

ونبي قد جاء للناس بالحق فكالوا له الشتائم كيلا
وتنادوا به «الى النار . . . فالنار بروح الخبيث أحرى وأولى»
ثم القوه في اللهيب وظلوا يملأون الوجود رعباً وهولا

هذه بعض الصور التي لمسها الشابي في حياة الشعب الاجتماعية جلاها لنا في قصائد عديدة منها (قلب الام) و (من اغاني الرعاة) و (الى عازف اعمى) .

ومن هذه الصور نستجلي قلب الشابي المفعم بالهموم المسربل بالكآبة فنرى اليه يستنجد برفيقه قائلاً :

غنني يا أخيّ فالكون تيهاء بها قد تمزقت أقدامي
غنني علني أنيم همومي إنني قد مللت من تهيامي

ثم يلتفت اليه متسائلا :

يا رفيقي أما تفكرت في الناس وما يحملون من آلام ؟
فلقد حز في فؤادي ما يلقون من صولة الأسى الظلام
فاذا سرني من الفجر نور ساءني ما يسر قلب الظلام

كم بقلب الظلام من انة تهفو بغصات صبية أيتام
ونشيج مضرم من فتاة ابهظتها قوارع الايام
ونواح يفيض من قلب أم فجعت في وليدها البسام
فطم الموت طفلها وهو نور في دجاها، من قبل عهد الفطام
وانين من معدم ذي سقام ، عضه الدهر بالخطوب الجسام

ومن أجل هذا أيضاً رأينا الشابي قد ترك الناس في مدينتهم وذهب الى الغاب وهو يردد :

كرهت القصور وقطانها وما حولها من صراع عنيف
وكيد الضعيف لسعي القوي وعصف القوي بجهد الضعيف
وجاشت بنفسي دموع الحياة وعجت بقلبي رياح الصروف
لقلب الفقير الحطيم الكسير ودمع الأيامى السفيح الذريف
ونوح اليتامى على امهات توارين خلف ظلام الحتوف

الشّابي

في نقمته على الشعب

العناصر المكونة لهــذه النقمة

أكرر هنا ما قلته سابقاً من أن الشابي لم ينقم على الشعب لانه كان راضياً مستكيناً للاستعمار • إن علينا عند دراستنا للشابي أن ننظر من زاويتين ، حين نعرض لموقفه من الشعب •

فنرى من الزاوية الاولى موقف الشعب من الاستعمار ونرى من الزاوية الثانية موقف الشعب من الشابي نفسه ، هذا الشعب الذي كان سبباً في نقمة الشابي وسخطه وثورته عليه •

وقد درسنا في الفصل السابق الشابي وموقف الشعب من الاستعمار أما الآن فسندرس الشابي من خلال الزاوية الثانية أي موقف الشعب منه وسنحلل العناصر التي كونت هذا السخط وهــذه النقمــة ليبرأ الشابي من التناقض ويبرأ الشعب من الاستكانة وبالتالي نستطيع أن نحكم على رسالة الشابي حكماً صحيحاً •

أما العناصر التي كونت هذه الشخصية الناقمة فتتمثل :

أولاً ــ في رواسب التقاليد القديمة التي يمكن أن نحللها الى عنصرين •

ثانياً ــ في الطبيعة الاقليمية والتكوينيــة التي عاش فيهــا الشاعر •

والعنصران اللذان تكونا من النظريات القديمة الباليةوتولدا من التقاليد الرجعية العتيقة هما :

أولاً ـ اتهام الشعب له بالكفر والالحاد .

وحتى نعرف كيف رمى الشعب الشابي بهذا الاتهام يجب أن نستعرض فصول حياة الشابي داخل (الزيتونة) .

والزيتونة في ذلك العهد تمثل التعصب الاعمى الذي لا يستند الى العقل ولا ينتسب الى الدين .

وفي رأينا أن المعركة ـ من هذا الجانب ـ بين الشابيوبين الشعب بدأت في نطاق ضيق محدود ثم اتسعت شيئاً فشيئاً :

(أ) بدأت حين كان الشابي يتلقى العلوم الدينية على شيوخ لا يحملون من الاسلام إلا زيه وأما الاصول الدينية وأما الروح الاسلامية فهم عنها بعيدون ، ولا يكادون يفقهون منها شيئا ..

كثيرا ما يحتدم الجدل والنقاش بين بعض الطلاب وشيوخهم وحين ينتصر أحد الطلاب على شيخه ويعجز هذا عن الاجابة يلجأ الى سلاح أقوى من الاجابة وأحد من الرد . وهو رمي الطالب بالكفر والزندقة والمروق عن الدين .

إننا نعرف أن الشابي كان متحرراً في افكاره نتيجةللمطالعات الخارجية التي كان منكباً عليها في مكتبات تونس . حيث كان

فكره يلتهم ، في فهم ، كلّ ما كان يجده في الكتب القديمة والحديثة من أدب وفلسفة ودين • وكان يقبل بحماسة شديدة على الادب المهجري وعلى ما ترجم من الأدب الغربي •

هذه المطالعات الخارجية هي التي كونت الشابي المتحرر وجعلته لا يقبل كل ما يقوله الشيوخ في حلقات دروسهم ••

ونرجح أن الشابي قد ناقش هؤلاء الشيوخ في بعض مسائل الدين وألحّ في معرفة الحقيقة كما نرجح أن هؤلاء الشيوخ أمام عجزهم عن اقناعه لم يروا بدأ من اضطهاده ورميه بالكفر •

ورأينا هذا يؤيده الشابي بقوله وهو لم يبلغ الثامنة عشرة :

ينقضي العيش بين شوق ويأس — والمنى بين لوعة وتاسي
هذه سنة الحياة .. ونفسي — لاتود الرحيق في كأس رجس
ملىء الدهر بالخداع .. وكم قد — ضلل الناس من امام وقس
كلما أسأل الحياة عن الحق — تكف الحياة عن كل همس

أن هذه الحرية في التفكير وهذا الاضطهاد الذي لقيه من شيوخه هما اللذان دفعاه الى النقمة على أساليب التعليم العتيقة وبالتالي الى أن يهب مناضلاً بالعمل والقول في سبيل تحطيمها وبناء أسس جديدة على أنقاضها تساير العصر وتنهض بالشباب وترتقي بالوطن •

وكان يستصرخ الشعب ويردد في ألم وحسرة :

مـزقت ثـوب سكـون الليـل أنـــات كليمْ
بـين طياتِ سجاف العاشـق الداجـي البهيمْ
حـركت مني شعوراً كـان مـن قبـلُ رميمْ
فتحسست مكـان الصـوت في ذاك الأديـمْ
فـاذا بـالارض ملقـى هيكـل نضـو كلـومْ
عفرتـه الترب والعـينُ علـى الخد سجـومْ
فتـأملـت مليـاً وجهَــه تحـت الغيـومْ
فـاذا الملقـى بوادي وطني جسـمُ العلـومْ
يا بني الاوطان هبـوا فلقـد طـال الوجـومْ
وانهضـوا نهضـة جبـار بعـزم مستقيمْ

* * *

ليت شعري هل سحاب الجهل تذروه العقيـمْ
فترى الأعين بدرَ العلـم قد شـق الغيـومْ
ليت شعري يا بلادي..هل تصافيك العلومْ؟(١)

هكذا ابتدأ الصدام بين الشابي وبين الشعب في الناحيـة الدينية وبين نظرة الشابي الى الاصلاح ونظـرة خصومه الـى الابقاء على القديم .

(ب) وحميت هذه المعركة واتسعت دائرة الصدام بعد ذلك عندما أرسل الشابي صرخته الجبارة :

اذا الشعب يوماً أراد الحياةْ فلا بد أن يستجيب القدرْ

---

(١) هذه القصيدة غير موجودة بالديوان ومثبتـة في كتـاب (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر) .

فلقد حملت الصحف وحمل الشعب حملة شعواء على الشابي وبقيت اصداء هذه الحملة حتى بعد موته •• انكروا عليه قوله أن القدر ـ أي الله ـ لا بد ان يستجيب للشعب ورموه بالكفر والزندقة والالحاد ، لما في هـذا القـول ـ في نظرهم ـ من استنقاص لارادة الله وقدرته ، ونسوا أو تناسوا قول الرسول : لو تعلقت همة المرء بما وراء العرش لناله •

ونحن نجد في ديوان الشابي كثيراً من الأقوال التي تتعرض للاله وربما كان في ظاهرها عدم ايمان به وفي مضمونها شك في قدرته بل في وجوده •• فهو في قصيدته « الى الله » يقول :

يا ريـاح الوجـود سيري بعنف
وتغنّـي بصـوتـك الأواهِ

وانفحيني من روحك الفَخْم مايبلغ
صـوتـي آذانَ هـذا الإلـهِ

فهو يصغي الـى القوي ولا يصغي
لصـوت بـين العواصف واهِ

ولا يخفى ما في هذه الابيات من نفي لعدل الله فهو يحابي القوى ويتحامل على الضعيف •

ولا يكتفي الشابي بهـذا بل يصرح بشكه فـي وجـود الاله عندما يقول :

ياضمير الوجود يا عالمَ الارواح يا أيها الفضاءُ الساهي
يا خصمَ الحياةِ يزخرفي الآفاق ، في الترب ، في قرار المياهِ
خبروني هل للورى من اله راحم ـ مثل زعمهم ـ أواه ...
يخلق الناس باسماً ويواسيهم ويرنو لهم بعطف إلهي
ويرى في وجوههم روحه السامي وآيات فنه المتناهي
انني لم أجده في هاته الدنيا فهل خلف افقها من اله

ولكن هذا الشك لا يدوم طويلا..وتنقشع الغمامة المتولدة من اليأس عن قلب الشابي ليحل محلها الايمان ... وينطلق اللسان يطلب المغفرة والرحمة :

ما الذي قد أتيت يا قلبي الباكي وماذا قد قلتِه يا شفاهي ؟
يا الهي قد انطق الهمُ قلبي بالذي كان .. فاغتفر يا الهي
قدمُ اليأسِ والكآبةِ داست قلبي المتعب الغريب الواهي
فتشظى وتلك بعضُ شظاياه فسامحْ قنوطه المتناهي
فهو يارب معبدُ الحق والايمان والنور والنقاء الالهي
وهو نايُ الجمال والحبُ والاحلام لكن قد حطمته الدواهي

والامثلة على هذا كثيرة ولكننا نكتفي بهذا القدر ولمن يريد المزيد ان يرجع الى الديوان .

ولا يفوتني أن أكرر هنا ما قاله الدكتور فروخ في عقيدة الشابي « على أن الله وحده قد ظل له في قلب الشابي رهبةقدسية ما ، ان الشابي وان كان قد ادار ظهره للدين لم يكفر بالله ولم يكن زنديقاً » [١].

---

(١) شاعران معاصران ص ١٧١ ـ ١٧٢

(ج) وهناك حادثة أخرى في حياة الشابي جعلت الشعب يشتد في مقاومته واضطهاده ورميه بالكفر والالحاد . هذه الحادثه هي تأييده للطاهر الحداد في دعوته لتحرير المرأة ..

ويقول الاستاذ أبو القاسم كرو : « وتقوى الرجعية الباغية على طليعة الاحرار فيعلن الحداد من فوق منابر الجوامع ويحكم على الشابي بالجحود والكفر على أعمدة الصحف »[1] .

يؤكد لنا التاريخ أن الشابي كان يجد محاربة شديدة ومقاومة عنيفة من انصار القديم في الادب

وهذا التنكر لأدبه تتبينه في عدم اعتراف الصحافة به وعدم نشرها لقصائده[2] ثم في هذه المجالس الادبية التي كانت تحمل على شعره وتنتقده في قسوة وتهجم عنيفين .

يقول الاستاذ محمد البهلي النيال « تألق نجمه حين ظهوره بنوع جديد من الأدب لم يكن معهوداً في ذلك الوقت وأنف فيه أن يتبع خطى من سبقوه ويحذو حذوهم فكان آنئذ حديث المجالس والمنتديات الادبية التي كثيراً ما كانت تندد بأدبه وتهاجمه وتنتقد نهجه الذي ارتضى ، وكانت في غالب الاحيان تنتهي باجماعها على مروق هذا الشاعر » .

---

(١) كفاح الشابي ص ٧٠

(٢) مجلة الندوة السنة الاولى العدد الاول ص ٢٧

ويقول الاستاذ كرو : « وخاطب شعبه بصنوف من القول لم تألفها اسماعه وعرض عليه اسلوباً في الحيــاة لم تتعوده طباعه واخلاقه ولا يتفق مع ركوده واستسلامه فقوبلت أقوالهواساليبه بالسخرية والاعراض من قومه فزاد ذلك من آلامه وجراحــه واحترق في أتون من السخط والثورة على هذا الغباء المستحكم والجهالة المتأصلة والجمود الأخرس » •

ومرة أخرى نجــد الاستاذ كرو يقول : « عندمــا دعــا الشابي الى ضرورة ايجاد أدب جديد يتصل بالحياة ويعبر عن مشاكل المجتمع ومطامحه حمل الهدامون فؤوسهم وجاءوا اليــه مهرولين وهم يتصايحون : أين الكافر ؟ أين هو الخيالي ؟ أين هو الناعــي علينا الركود والجمود ؟ •• وعبثاً حاول فقيدنا أن يفهمهم حقيقة الادب وواجب الادب في هــذا العالم الحديث وحضارته الشامخة وذهب سدى كل ما أعلنه فيهم من مفاهيم جديدة للأدب وقيم حقيقية للشعر ورسالة الشاعر» [1] •

وأخيراً هذا هو الشيخ محمد الفاضل بن عاشور يثبت أن محاضرة « الخيال الشعري عند العرب » التي القاها الشابي في مستهل حياته الادبية « قد أثارت في النوادي الادبية ضجةكبرى

---

(١) كفاح الشابي ٢٣

انقسم فيها الناس بين مادح وقادح ، وتتبع الكتاب بمقالاتهم النقدية آراء المحاضر واتجاهاته وهاجمته الصحف الدستورية مثل جريدة النديم بالاستخفاف والتهكم والتشهير وفظيع الاتهام » [١] .

ثالثا ـ الطبيعة الاقليمية والتكوينية

والشابي بعد من بلد الجريد ، وأهالي الجريد مشهورون في كل القطر التونسي برقة الحساسية والشعور الى جانب روح ناقمة تثور لأي شيء وتتبرم من ادنى الاسباب .. ومن خالط أهل الجريد فانه يستطيع أن يلاحظ فيهم هذه الظاهرة التي عرفوا بها .. فكان طبيعياً أن يأخذ الشابي عنهم هذه الروح الثائرة المتمردة المتبرمة التي غذاها بعكوفه على دراسة الشعر الرومانتيكي العربي منه أو المترجم . وبامتزاج هاتين الطبيعتين الاقليمية والتكوينية مع العنصرين الاولين رأينا الشابي ثائراً على الشعب منددأ به ساخطاً عليه محاولاً الهروب من الحياة تارة والابتعاد عن الناس تارة أخرى .

أنه يشعر بغربته في هذا المجتمع ، وهذا الشعور بالغربة هو الذي انطقه قوله :

---

(١) الحركة الادبية ١٦١ .

شرّدتُ عن وطني السماوي الذي
ما كان يوماً واجماً مغموما
شرّدتُ عن وطني الجميل أنا الشقي
فعشت مشطور الفؤاد يتيما
في غربة روحية ملعونة
أشواقها تقضي عطاشاً هيما
يا غربة الروح المفكر إنه
في الناس يحيا سائماً مسئوما

الثورة على الشعب في شعر أبي القاسم

من العناصر الثلاثة التي ذكرتها سابقاً تكونت شخصية الشابي الناقمة على شعبه والمتصفح لديوانه يدرك مدى صحة هذا القول في قوله :

ملىء الدهر بالخداع فكم قد ضلل الناس من إمام وقسّ

وعندما يهاجم الأدباء ـ من انصار القديم ـ الشابي في اجتماعاتهم ويديرون الحديث حول شعره ساخرين منه مستخفين بأدبه منتقصين مكانته نسمعه يقول :

لا أعنّي نفسي باحزان شعبي
فهو حيٌّ يعيش عَيش الجمادِ
وبحسبي من الأسى ما بنفسي
من طريف مُستحدث وتلادِ
وبعيداً عن المدينة والناس
بعيداً عن لغو تلك النوادي

فهو من معدن السخافة والإفك ومن ذلك الهراء العادي

ويقول :

مافي وجـود الناس من شـيء به
يرضـي فؤادي أو يسر ضمـيري

فاذا استمعتُ حديثَهـم الفيتـه
غثـاً ، يفيض برِكَـة وفتـورِ

واذا حضـرت جموعَهـم الفيتني
مـا بينهـم كالبلبـل المأسـور

متوحـداً بعواطفـي ومشاعـري
وخواطـري وكآبتي وسـروري

ينتابني َحـرَجُ الحيـاة كانني
بـوهـدة جنـدل وصخـورِ

فـاذا سكـت تضجـروا واذا
نطقت تذمـروا من فكرتي وشعوري

آه مـن النـاس الـذين بلوتهـم
فقلوتهـم فـي وحشتي وحبوري

مـا منهـم الا خبيث" غـادر"
متربص بالنـاس شـر مصيرِ

نعم .. كان ذلك الحديث الذي يدور في نوادي انصار القديم لغواً ، وقد جبلته تلك العقول الضيقة المحدودة من معدن السخافة والافك .

تلك العقول التي عشقت الظلام وكرهت النور ، واضطهدت كل من يدعو الى التقدم والتحرر من قيود الماضي المتحجر .

والشابي يلمح في قصيدة « نشيد الجبار » الى هذه المأساة التي كان يتحملها بقلبه الكبير .. هذه المأساة التي عاشها طوال حياته .. والتي كان يقوم بتمثيلها اشخاص لا يفهمون من الادب الا أنه أوزان وقواف .. ولم يستطيعوا أن يتعمقوا في المعاني السامية التي كان يرمي اليها الشابي ...

إن قصيدة (نشيد الجبار) تعبّر بقوة عن ارادة الشابي وصموده أمام هؤلاء كما تكشف لنا بالتالي عن تفاهة هؤلاء وحقارتهم حين يرمون الحجارة على ظل الشابي ويختفون وراء جدران البيوت ليديروا الحديث في شتمه والحط من مكانته ..

واقول للجمع الذين تجشموا
هدمي .. وودوا لو يخرُ بنائي
ان المعاول لاتهد مناكبي
والنار لا تاتي على اعضائي
فارموا الى النار الحشائش والعبوا
يا معشر الاطفال تحت سمائي
واذا تمردت العواصف وانتشى
بالهول قلبُ القبة الزرقاءِ
ورأيتموني طائراً مترنماً
فوق الزوابع في الفضاء النائي

فارموا على ظلي الحجارة واختفوا
خوف الرياحِ الهوج والانواء

وهناك في امن البيوت تطارحوا
غث الحديث وميتَ الآراء ،

وترنموا ما شئتمْ بشتائمي
وتجاهروا ما شئتم بعِدائي

اما انا فاجيبكم من فوقكم
والشمس والشفق الجميل إزائي

من جاش بالوحي المقدس قلبه
لم يحتفل بحجارة الفلتاء

وقد عاش الشابي بين بني قومه متوحداً بعواطفه كما قال بعد أن سبر أخلاق الناس وأثبتت له الحقيقة أنه :

ما قدس المثل الأعلى وجمّله
في أعين الناس الا انه حلم

لا يعبد الناسُ الا كلَّ منعدم
ممَنّع ولمن حاباهم العدم

حتى العباقرة الافذاذ حبُهم
يلقى الشقاء وتلقى مجدها الرمم

الناس لا ينصفون الحي بينهم
حتى اذا ما توارى عنهم ندموا

الويـل للناس من أهوائهم أبـداً
يمشي الزمان وريح الشـر تحتدم

وييأس الشابي من تفهم الشعب لنفسيته وروحه وأدبه فيسأله مستنكراً معاتباً :

أين ياشعب قلبك الحساس ؟ أين الطموحُ والاحـلام ُ ؟
أين ياشعب روحك الشاعر الفنان ؟ أين الخيال والالهامُ ؟
أين ياشعب فنك الساحر الخلاق ؟ أين الرسوم والانغـام ؟

ويقف الشعب جامداً متصاماً أمام هذه الاستفهامات ويزداد غلواً في موقفه المعادي للشابي ويبرهن على أنه لا يفهم الشعـر ولا يستسيغ الفن ولا يعشق الحياة ولا يرى أجنحة الخيال ولا تستهويه الرسوم وانما هو :

كافرٌ بالحياة والنور .. لا يصغي الى الكون قلبه الحجري

ونتيجةً لهذا الجمود وهذا الموقف المتحجر يبعث الشـابي باعظم قصيدة ناقمة ساخطة ثائرة على هذا الشعب الذي لم يفهم رسالة(النبي المجهول) ولم يقدس فنه ولم يعترف بجميله فداس زهوره وهرق كأسه ورماه بالجنون والسحر والكفر .

وأول ما يتمناه الشابي فـي هـذه القصيدة هو أن يكون حطاباً يجتث (الجذوع) التي تقف حجر عثرة في طريق تقـدم الشعب ورقيه . هذه الجذوع التي تتمثل في انصار القديم في

كل شيء .. في الدين والادب والحياة .. يتمنى الشابـي أن يقتلعها بفأسه فيقول :

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً فاهوي على الجذوع بفاسي

ويسترسل في امنياته .. فهـو يتمنى أن يكون كالسيول والرياح والشتاء ...

ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهدُّ القبور رمساً برمسِ
ليتني كنت كالرياح فاطوي كل ما يخنق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء اغشى كل ما أذبـل الخريفُ بقرس

وتشتد ثورته فيتمنى أن يكون إعصاراً حتى يلقـي بنقمته وثورة نفسه الى شعبه ....

ليت لي قوة الاعاصير يا شعبي فالقـي اليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الاعاصير .. لكن أنت حيٌّ يقضي الحياة برمسِ

ويذكر الشابي الشعب بما قدم اليه من خدمات لم تجد عنده تقديراً ولا حظاً من اعتبار وانما وجدت استنكاراً ومعارضة وحرباً ...

في صباح الحياة ضمخت اكوابي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فاهرقتَ رحيقي ودست ياشعب كاسي
فتالمت ثم اسكتُّ آلامـي وكفكفت من شعوري وحسي

ثم نضدتُ من ازاهير قلبي باقة لـم يمسها أي إنســي
ثم قدمتهـا إليك فمزّقت ورودي ودستهـا أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً وبشوك الجبال توّجت رأسي

ثم يذكره بجنايته نحو هذا الشاعر الذي أراد له الخير والاصلاح والحياة فتلقاه بالجمود وقال فيه :

قد أضاع الرشاد في ملعب الجن فيا بؤسه اصيب بمسٍّ
طالما خاطب العواصف في الليل وناجى الاموات في غير رمس
طالما رافق الظلام الى الغاب ونادى الارواح من كل جنس
طالما حدث الشياطين في الوادي وغنّى مع الرياح بجرس
انه ساحر تعلمه السحرَ الشياطينُ كل مطلـع شمس
فابعدوا الكافر الخبيث عن الهيكل ان الخبيث منبع رجس
اطردوه ولا تصيخوا اليه فهو روح شريرة ذات نحس

هذا ما قاله الشعب في الشابي ... الشابي الذي وهب حياته وفنه وضحى براحته واستقراره في سبيله ... الشابي الذي طالما نافح ودافع عنه ضد الاستعمار .

والشابي ازاء هذا الهجوم العنيف عليه من طرف الشعب لم يجد بداً من أن يخاطبه بقوله :

أيها الشعب انت طفل صغيرٌ لاعب بالتراب والليلُ مغسِ
انت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقريـة ذات بـاس
انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقـة نفسي

وهكذا نظر الشابي الى نفسه والى شعبه من خلال موقفه معه وقال :

هكذا قال شاعر فيلسوف
عاش في شعبه الغبي بتعس
جهل الناس روحه واغانيها
فساموا شعوره سوم بخس
فهو في مذهب الحياة نبي
وهو في شعبه مصاب بمس

هكذا قال .. ولكنه في قوله هذا وبالرغم من شدة نقمته على شعبه له ينكر قوة هذا الشعب ولم يجحد مواطن الخير فيه فكان يناديه باعثاً فيه الروح الاصلاحية الخيّرة القوية :

انت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس

ومتى وجدت هذه الفكرة العبقرية وساست تلك القوة فانها سوف تبعثها لتقوض صروح القديم وهياكل الرجعية ..

لقد كان الشابي شقياً بحساسيته كما قال وحين لم يفهم الشعب رسالته واغاني روحه خاطب الاله وكأنه يشكو من هذه الحساسية التي جعلته يعيش غريباًبأفكاره ، وحيداً بما يحمله في قلبه الكبير :

في جبال الهموم انبتُّ اغصاني فرفتْ بين الصخوربجهدِ
وتغشاني الضباب فاورقت وازهرت للعواصف وحدي

وتمايلت في الظلام وعطرت فضاء الاسى بانفاس... وردي
وبمجد الحياة والشوق غنيتُ فلم تفهم الاعاصير قصدي
ورمت للوهاد أفناني الخضر وظلت في الثلج تحفر لحدي
ومضت بالشذا فقلت ستبنيني في مروج السماء بالعطر مجدي
وتغزلت بالربيع وبالفجر .. فماذا ستفعل الريح بعدي ؟

وقبل أن أختتم هذا الفصل يحسن بي أن أثبت أبياتاً جمعت كل عناصر ثورة الشابي وهي التي يقول فيها :

الشاعر الموهوب يهرق فنه
هدراً على الاقدام والاعتاب
ويعيش في كون عقيم ميت
قد شيدته غباوة الاحقاب
والعالم النحرير ينفق عمره
في فهم الفاظ ودرس كتاب
يحيا على رمم القديم المجتوى
كالدود في حمم الرماد الخابي
والشعب بينهما قطيع ضائع
دنياه دنيا ماكل وشراب
الويل للحساس في دنياهم
.. ماذا يلاقي من أسىً وعذاب

رسالة الشابي

هل أدى الشابي رسالته ؟

في الفصلين السابقين درسنا موقف الشابي من الشعب وتبين لنا أنه لم يكن مذبذباً في آرائه ولا متقلباً في اهوائه كما تبين لنا عدم صحة الدعوى التي تريد أن تبعد التهمة عن الشابي على حساب الشعب والنيل منه والغض من أعماله الجبارة التي قام بها ضد المستعمرين .

وفي هذا الفصل سنتناول بالبحث رسالة الشابي حتى نصل الى نتيجة تقرر المدى الذي وصل اليه شاعرنا في أداء رسالته هذه . وقبل أن ندرس العناصر التي ضمتها هذه الرسالة يجدر بنا أن نذكر المبدأ الذي سار ابو القاسم في ادائها عليه . وابو القاسم يذكر لنا هذا المبدأ في قصيدته (شعري) فيقول :

لا أنظم الشعر ارجو   به رضاء الامير
بمدحة أو رثاء   تهدى لرب السرير
حسبي اذا قلت شعراً   أن يرتضيه ضميري

* * *

ما الشعر الا فضاء   يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي   وما يسر المعالي

ومـا يثير شعـوري من خافقـات خيالــي

* * *

لا أقرض الشعر أبغـي بـــه اقتنــاص نـــوالِ
الشعر إن لـم يكن فـي جمـــالـه ذا جـلالِ
فانمـــا هـــو طيـف يسعـى بوادي الظلالِ

هذا هو المبدأ الذي سطره الشابي لنفسه فـي أداء رسالته الخالدة وسار عليه في كل إنتاجه الشعري • ولو ألقينا نظرة على الشعر منذ نشأته الاولى حتى عصرنا الحاضر •• وتتبعناخطوات شعراء العربية لرأينا شعرهم لا يكاد يخلو من المدح او الرثاء أو سائر الاغراض الاخرى التي نسميها المناسبات •••

« وقد جاء الشابي والشاعر عندنا تنحصر رسالته في قول الشعر يسترضي به الغاضب ويستعطف العاتب ويستمنح الرفد ويستنجز الوعد وربمـا قال ليلهو ويسلي ويظهر القـدرة على الوزن ورصف القوافي ونحت العبارات والكلمات »[1] •

« ولعل افدح ما كان يشكوه الشعر حينذاك ضعف الايمان به كقضية فنية يستحق الحياة من أجلها والتفرغ لها كما يتفرغ العابد المتصرف لعبادة ربه »[2] •

حتى أولئك الذين حملوا مشعل المبـادىء كالخوارج أو

---

(١) مع الشابي ص ٦٦ •
(٢) الشابي وجبران ص ٧٦ •

الشيعة في القرون الاسلامية الاولى أو الذين جعلوا من أنفسهم لساناً للوطن وللشعب الذين يعيشون من أجلهما مدافعين ومناضلين أيام ابتلوا بالاستعمار أمثال حافظ والرصافي .

حتى أولئك لم يستطيعوا أن يتحرروا من رواسب القديم وأغراض القديم إما لدوافع نفعية أو حتى لا يتهموا بالعجز في القول عن غرض ما ...

وجاء الشابي فداس كل الاغراض الشعرية العتيقة المتعفنة التي لا تتفق مع روحه المتمردة الحرة .. وأشاح بوجهه عن أولئك المتطفلين على الآداب واهباً حياته لفنه وخالقاً من فنه جنة لحياته .. لم يمدح ولم يهج .. لم يستعتب صديقاً ولم يسترحم ذا سلطان .. لم يتوسل بالشعر الى المناسبات « ولم يرث حتى والده وقد كان عنده أعز مخلوق في الدنيا .. لم يرثه الا بأبيات ليست من الرثاء في شيء ، وانما هي حديث وجداني مجنح عن نفس الشاعر وعبوديته للحياة وحبه لها ودعوته إياها في شوق العابد وحنان الحبيب » (١) .

وهكذا نرى أنه « ليس في ديوان الشابي بيت واحد قاله في غرض من الاغراض الزائلة أو في مطلب من المطالب العارضة أو في خصوصية من الخصوصيات او في شخصية من

---

(١) كفاح الشابي ص ٥١ .

الشخصيات بينما لا يخلو ديوان معاصريه في الشرق العربي من قصائد في الاخوانيات والخصوصيات هذا اذا لم يكن في توديع المسافر واستقبال القادم وتكريم الممثلة والغني والباني والمتصدق وحتى الناجح في مباراة لعب الكرة » [1] .

واخلاص الشابي في هذا المبدأ وتفانيه في الوفاء بما نذره على نفسه هو العامل الاكبر لنجاحه كشاعر صاحب رسالة ولمكانته التي تركها في الوطن العربي .

يقول الاستاذ خليفة التليسي « وأكاد أجزم أن العربية في شعرها الحديث لم تعرف شاعراً اتخذ من الشعر قضية يعيش من أجلها كما اتخذها الشابي وذلك سر من أعظم اسرار الشهرة التي يتمتع بها أدبه والتي تسهد له مكاناً في كل قلب » [2] .

وحرصُ الشابي على أداء رسالته التي كان يحس أنه لم يخلق الا لأجلها هو الذي جعله يسير على هذا المبدأ الذي سطره لنفسه في قصيدة (شعري) ولم يحد عنه كما ذكرنا . ولكنه مع كل ذلك كان يخشى أن يداهمه الموت وفي نفسه شعور بأنه لم يؤد رسالته كاملة ، كتب الى الاستاذ محمد الحليوي في احدى

---

(1) مع الشابي ص ٧٠ و ٧١ .
(2) الشابي وجبران ٢٧ .

رسائله يقول :

« انه لا يحزنني شيء في هذه الدنيـا أكثر ممـا يحزنني التفكير في أنني أموت قبل أن أؤدي رسالتي التي أحس أنني لم أخلق لغيرها في هذا العالم » (١)

فهل مات الشابي مستريحاً وهو مؤمن بأنه أدى رسالته كاملة أم مات وفي قلبه شيء من الحزن لاحساسه بأن رسالته لم تنته بعد وان عليه ان يحيا حتى يتمها ؟

أن قصيدته (الصباح الجديد) تشعرنا بأنه كان راضياً عن نفسه شاعراً بالسعادة والطمأنينة متفائلاً بما تركه في شعبه من روح وما نفخ فيه من عزم وما سطر له من نهج .

مات بعد أن ترك في شعبه شرارة كان يؤمن بأن نارها ستشب يوماً لتحرق الطغيان وتذيب العبودية .

ياشعب قد خلقت فيك شرارة ستشب يومـاً نارهـا بضرام

نعم ، مات مستريحاً لانه كان يعتقد أن رسالته قـد انتهت وأن عليه ان ينتظر ثمرة الرسالة .. لذلك .. عندما بدأ يشعر بأن أجله قـد اقترب وألفى سحب الموت تخيم فـي سمـاء حياته لم يحاول الهرب ولم يبد أي تذمر أو شكوى بل علـى

---

(١) مع الشابي ص ٦٦

انعكس من ذلك سمعناه يردد في انطلاق الفجر على مسمع (الصباح الجديد) .

من وراء الظلامْ وهدير المياهْ
قد دعاني الصباحْ وربيع الحياهْ
ياله من دعاء هز قلبي صداهْ
لم يعد لي بقاءْ فوق هذي البقاعْ
الوداع ... الوداعْ ياجبال الهمومْ
ياضباب الأسى يا فجاجَ الجحيمْ
قد جرى زورقي في الخضم العظيمْ
ونشرت القلاعْ فالوداع ... الوداعْ

ماهي رسالة الشابي ؟

والآن يجدر بنا أن نحصر الأسس التي ارتكزت عليها رسالة الشابي لنأتي بذلك على ختام هذا البحث ولنكون قد قمنا ببعض الواجب نحو شاعر العروبة بل شاعر الانسانية ... أما هذه الأسس فهي عندي تتمثل في نواح ثلاث :

الاولى ـ ادبية

ورسالة الشابي الادبية تتمثل في سموه بالشعر وعدم الاسفاف والتدهور به الى محيط المناسبات وأذواق العامة .

كان مؤمناً بأن رسالة الشاعر تتمثل في الارتقاء بالنفس الانسانية الى عالم الجمال والحب وأن على الشاعر أن يعبر عما في نفسه وما يجول في خاطره دون اعتبار لأي شيء آخر وبأسلوب يتفق وروح الشاعر الفنان الذي لا ينظر للقديم وقيود القديم الا على أنه تراث يسجل في فترة ما من التاريخ ظاهرة اجتماعية لأمة من الامم . إن على الشاعر أن يبعث في نفس المتلقي لأدبه روحاً حالة ً سابحة ً في دنيا الخلود والسحر وان يثير في علبه شتى العواطف والاحاسيس التي تنقله من العالم المادي الى العالم السماوي الرحب بخياله وجماله .

وعلى ذلك فالشابي لم يتقيد بالشعر القديم لا باغراضه ولا باساليبه بل كان مجدداً في كل ذلك ولم يرضخ للذين حاربوه في اتجاهه الجديد بل سار في طريقه شامخاً هازئاً بالعقبات لأنه كان مؤمناً بأن على صاحب الرسالة أن لا يتنازل للرأي الشعبي وأن عليه أن يقوده لا أن يكون منقاداً له .

ونحن اذا استثنينا سعيداً أبا بكر الذي يعتبر « أول شاعر تونسي تجاسر ونظم على الاوزان الجديدة كشعراء المهجر »(١) أمكن لنا أن نقول إن الشابي كان أول من خط في ديوان الشعر العربي بتونس عنوان الثورة والتمرد على اساليب القديم واغراض القديم واوزان القديم ... غير أن سعيداً وان كان من المجددين في القوالب الشعرية الا أن أسلوبه ظل هزيلاً نوعاً ما ، ولم يستطع أن يسمو بالفن الى قمته كما فعل الشابي وكثيراً ما نلاحظ في شعر سعيد ابتذالاً في الالفاظ ونشازاً في الجمل وتهلهلاً في المعاني وضعفاً في التراكيب . أما الشابي فقدسحر الناس بموسيقاه العذبة وانغامه الشجية وتعبيره الانيق واسلوبه الشيق وتصويره المبدع .

ان « اناقة التعبير ورصانته واصالته هي الدعائم الاولى التي يقوم عليها اسلوب الشابي الذي امتاز ببعده عن الركاكة التي

---

(١) شاعران معاصران ص ٣٢

أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة فهو اسلوب ينساب في عفوية وبساطة رصينة بساطة من ادرك موضع اللفظ ومدى قوته التصويرية والموسيقية » [1] .

واذا كان الدكتور فروخ قد اتهم الشابي بالاغراق في الرمز ورمى بعض شعره بالركاكة [2] فانني اعارضه في ذلك واذهب الى ما قاله الاستاذ خليفة التليسي « الوضوح هو الدعامة الاولى للبساطة ، ولذا أجدني مخالفاً لمن يتهمون هذا الشاعر بالغموض وتعمد التعابير الرمزية وان شعره لمن الوضوح بحيث لايحتاج الى شرح او اعنات القريحة في فك تعابيره » [3] .

والدكتور فروخ يأتي ببعض الامثلة من شعر الشابي التي يقول عنها إنها موغلة في الرمز ونحن اذا ألقينا نظرة على هذه الامثلة التي أوردها الدكتور رأيناها تنطق بنفسها وبدون أي اجهاد في التفكير وتعبر عن المرمى الذي كان يقصد اليه الشاعر

وبالرغم من أننا نعلم أن شرح الشعر يفقده سحره ويذهب برونقه الا أننا نسأل الاستاذ فروخ : أين الغموض وأين الرمز في هذه الابيات :

---

(١) الشابي وجبران ص ١١٣
(٢) شاعران معاصران ص ١٧٥
(٣) الشابي وجبران ص ١١٤

اصيخي فما بين اعشار قلبي ... يرف صدى نوحك الخافت
معيدا على مهجتي بحفيف ... جناحيه همس الردى الصامت(١)

وأين خفاء المعنى في قوله :

وان قبلتك شفاه الحياة ... وصبت بفيك الرضاب المرير
فقد صفعت مهجتي الداميه ... بنعل الشتاء أكف الدهور (٢)

ان الشابي في قوله الاول يطلب من الزنبقة أن تصيخ اليه لان صدى نوحها بحفيف جناحيه يردد في مهجته همس الردى الصامت وهو لعمري كلام واضح لا يحتاج الى اجهاد أو اشغال فكر •

أما قوله الثاني فهو يواسي الزنبقة ويعزيها بما أصابه لأن أكف الدهور قد صفعت مهجته بنعل الشتاء •

وأي اصابة معنى أبلغ من هذه الاصابة ؟

أنه يريد أن يعبر عن الالم وعن معاكسة الدهر له فكان في تصويره هذا موفقاً الى أبعد حد • على أن هذه الابيات قد وجدت في الديوان على غير هذا الشكل ورويت بما لا يثبت معه قول الدكتور فروخ ••

أما الركاكة التي تكلم عنها الدكتور فقد تجدها ، في الحق، في شعر الشابي ولكنها في قصائد محدودة وارجح ان تكون في القصائد التي قالها في مطلع حياته الادبية وعلى ذلك فهي،

---

(١) في الديوان : معيدا على مهجتي بحفيف ... جناحيه صوت الاسى المائت.

(٢) في الديوان : وان ارشفتك شفاه الحياه ... رضاب الاسى ورحيق الالم
فاني تجرعت من كفها ... كؤوسا مؤججة تضطرم

لا تؤثر في الحكم على شعره .

وارید أن اقرر في ختام حديثي عن هـذه الناحية ما قاله الاستاذ خليفة التليسي « قوة اسلوب الشابي ليست في الفاظه رغم براعته في استخدامها ورغم ثروته في الالفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقي العبقري ولكنها في قوة احساسه .. انه اسلوب" تحسه قبل أن تفهمه لان الروح التي تسري فيه تأخذ عليك طريقك وتحاصرك فلا تعرف تحديد موضع القوة فيه ، وقوة الاحساس هي كل شيء في فنه أو شاعريته ، هي التي تخلق الفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في موضع السخط والتمرد وهي التي تتدفق بالالفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة » [1] .

الثانية ـ وطنية

اما الناحية الثانية من رسالة الشابي فهي وطنية قومية ، وهي تتمثل في هذه الصيحات الداوية التي كان يرددها في مسمع الشعب داعياً ومصلحاً ومحرراً ، كان يعلم أن الاستعمار قد احتل وطنه واستعبد ابناءه نتيجة اوضاع فاسدة وتقاليد بالية ضربت حول الشعب وقيدت حركته الفكرية والعملية عن التقدم والسير في ركب الحضارة والمدنية ...

---

(١) الشابي وجبران ص ١١٤

وكان على يقين من أن سحاب الاستعمار سيبقى مخيماً على بلاده ما دامت هذه التقاليد الميتة وما دامت هذه العناصر الرجعية متمكنة من نفس الشعب ، مسيطرة على روحه المريضة، وعلى ذلك لم ينس وهو يناضل الاستعمار ويحارب الطغيان ان يعالج المشاكل التي يراها تقف في وجه تقدم الشعب ونهوضه وتحرره .

وقد رأينا فيما تقدم كيف أن الشابي كثيراً ما كان يصل الى درجة كبيرة من النقمة والثورة على الشعب لانه لم يستجب له في دعوته للاصلاح ونبذ القديم ، وليس معنى هذا أن الشابي كان يكره الشعب وينقم عليه بل كان على عكس ذلك . إن حب الشابي لشعبه ولوطنه هو الذي كان يدفعه الى ان ينهج هذا الطريق ليحرك المشاعر ويحيي العزائم ويثير العواطف .. ونحن نراه في قمة ثورته على الشعب لا يلبث ان يقول :

انني ذاهب الى الغاب علني في صميم الغابات ادفن بؤسي
ثم انساك ما استطعت فما انت باهل لخمرتي ولكاسي

فأي معنى وطني ارفع من المعنى الكامن في عبارة (ما استطعت)؟ ألا تحس معي أن الشاعر غير قادر على نسيان شعبه الذي عقه وتنكر له ؟ (١)

والنقطة التي كان الشابي يركز عليها اعظم اهتمامه في

---

(١) الشابي وجبران ص ١٧٢

رسالته الوطنية هي ايقاظ الشعور واحياء الاحساس .
وهو يرى أن الشعب لا يتسق له ان ينهض من كبوته أو يحطم اغلاله الا اذا أحس بكيانه وشعر بوجوده .

كان يعتقد أن سبب ابتلاء الشعب بالاستعمار هو موت الشعور في نفسه وفقدان الحساسية في كيانه لذلك لم يتردد أن يقول عن حياة شعبه الذي اخمد في روحه الشعور بالعزة والحياة :

عمرٌ ميت وقلب خواءٌ ودم لا تثيره الآلامُ
اي عيش هذا ؟ واي حياة ؟ (ربَّ عيش أخفُّ منه الحمام)

وان يقظة الاحساس هي التي ترتفع بالشعب الى درجة التضحية وتدفعه الى التفاني في سبيل المبدأ والاخلاص في الكفاح والعمل :

فهي تدري معنى الحياة وتدري أن مجد النفوس يقظة حس

. . . .

عش بالشعور وللشعور فانما دنياك كونٌ عواطف وشعور
فتعيش في الدنيا بقلب زاخر يقظ المشاعر حالم مسحور
في نشوة صوفية قدسية هي خير ما في العلم المنظور

الثالثة ــ انسانية

وتتمثل الناحية الثالثة من رسالة الشابي في دعوته الانسانية الى تقديس الشعر وتقديس المرأة وتقديس الطبيعة واخيراً دعوته

للسلام واستنكاره للحرب . كان الشعر من قبل وسيلة للكسب متمسحاً على الاعتاب متماشياً مع التقاليد راضخاً لاساليب الناس

وجاء الشابي فارتفع به الى القمة وسما به الى أعلى درجات الجمال والقدسية وابتعد به عن الاغراض التي تتنافى مع رسالة الشاعر وروحانية الشعر .

وكانت المرأة في تونس وفي المجتمع الشرقي لا ينظر اليها الا على أنها أداة لهو أو آلة عمل ولم يرتق المجتمع الشرقي في تفكيره لينظر للمرأة نظرة الانسان لنصفه المكمل .

ان دعوة الشابي الى تحرير المرأة ونظرته اليها على أنها شيء مقدس قد ردتا اليها في ديوان الشعر العربي بعض الاعتبار وبوأتاها مكانها اللائق .

وكانت الطبيعة في الشعر العربي لا تتعدى الوصف الظاهري لها ...

أما في شعر الشابي فهي كائن حي" يهزه الطرب ، ويتملكه الحزن يغني ويبكي بمرح ويتألم ، يمشي وينام ، ينفخ نايه ويسبح في الاحلام (١) .

ومن دعوة الشابي الى تقديس الشعر ، وتقديس المرأة وتقديس الطبيعة يصل الانسان الى حقيقة واحدة هي تقديس الجمال ..

---

(١) مع الشابي ص ٦٩

الجمال في كل شيء ••• ومتى أحس الانسان بالجمال وقدس كلّ جميل فان نفسه تأبى أن ترضى بما هو دون الجميل ، فلا تظلم ولا تستكين ، ولا تتمسك بالقديم المتعفن ولا تجري وراء الجديد الفاسد ، لا تجامل ولا تتحامل ، لا ترفع حقيراً ولاتدوس عظيماً •••

ولا يكتفي الشابي في رسالته الانسانية بهذه النواحي بل كثيراً ما نراه يدعو الى حرية الشعوب وحقها في الحياة ويندد بالحروب ويدعو الى السلام والاخوة بين سائر افراد بني الانسان •

ولئن كانت وفاة الشابي وهو في ريق العمر قد أدت الى خسارة فادحة للأدب وللانسانية فان رسالته ستظل خالدة في نفوس الشباب •• انها « رسالة تحرير النفس من كل أسر والثورة على كل عبودية والتمرد على كل قيد ، هي رسالة تعلم الشباب كيف يميز الجميل والجليل من المزيف والسفساف ، هي رسالة تعصم من آمن بها من الاسفاف والكذب والمواربة في التعبير عن شعوره •

لقد ثار الشابي على الاوضاع البالية والتقاليد السخيفة والنفاق المنمق في مختلف الصور » (١) •

---

(١) مع الشابي ص ١١٢

فأية دروس يتلقاها الشباب الناهض من ثورة الشابي على كل الاكاذيب المنظمة والاباطيل المنمقة فيتعلم أنه ليس هناك في هاته الحياة ما يستحق الاعجاب والمحبة والتضحية الا ما بني على الحق والاخلاق والصدق وانه ليس في هاته الدنيا ما يستحق الاجلال والتقديس الا الجمال العاري من كل تزييف ، والسمو الروحي الذي لا تشوبه شائبة (١) .

* * *

ويستريح الشابي الآن في قبره لأنه أدى رسالته كاملة نحو شعبه ، ونحو الانسانية ونحو الأدب ..

أداها كاملة لأنه لم يكن مذبذباً متقلباً كما ذكر الاستاذ فروخ وأداها أكمل ما تكون لأنها كانت أكبر من سنه القصيرة ، وأداها كاملة أيضاً لأنها خلقت الشرارة التي قال هو عنها إنها ستشتعل في يوم من الايام لتحرق أصنام العبودية وتطيح بهامة التقاليد :

ياشعب قد خلقت فيك شرارة ستشب يوما نارها بضرام

نعم يا أبا القاسم ، صدقت نبوءتك فقد شبت نار هذه الشرارة في تونس وفي أرجاء الوطن العربي وفي سائر الاقطار المستعبدة التي لا تأتلي تردد قولك :

---

(١) المصدر السابق .

اذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

لقد شبت نار هذه الشرارة وما زالت مشبوبة متقدة حتى ينال الشعب العربي وكل شعب مستضعف حقه في الحياة والحرية .

فليتغمدك الله برحمته وليحفظ لك التاريخ ذكرك ، ولتهنأ روحك في الفردوس طالما حلمت به في دنياك .

ـ انتهى ـ

الفهـــرس

رقم الصفحة

١/٢٠٠٠ — ٣٠/٦/١٩٦٠

صمم الغلاف
عبد القادر الأرناؤوط

طبع على
مطابع المنار